بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمَة

الحمد لله .. وأشهد أن لا إله إلا الله . والصلاة والسلام على رسول الله ... وبعد:

عن أنس بن مالك قال: كان أبو ذر يحدِّث أن رسول الله ﷺ قال:

(فرج عن سقف بيتي وأنا بمكة، فنزل جبريل، ففرج صدري، ثم غسله بماء زمزم، ثم جاء بطست من ذهب .. ممتلئٍ حكمةً وإيماناً، فأفرغه في صدري، .. ثم أطبقه)[1].

هذا الحديث يؤكد قيمة الحكمة في تحديد منهج الدعوة، وتكوين أصحابها، وإنشاء واقعها، وتحقيق غايتها.

حيث امتلأ بها صدر رسول الله ﷺ ..

وهو صاحب الدعوة مع الإيمان .. وهو قضية الدعوة في لحظة واحدة ..

كما يؤكد النص قيمة الحكمة:

من خلال مجيئها يحملها جبريل .. وهو روح القدس ..

في طست من الذهب .. وهو أغلى المعادن ..

في مكة .. وهي البقعة المباركة ..

ليلة الإسراء والمعراج .. وهي أعظم اللحظات ..

ليمتلئ بها صدر رسول الله .. وهو خير الخلق ..

بعد غسله بماء زمزم .. وهو أطهر الماء ..

ورغم كل ذلك، فالحكمة في واقع الدعوة القائم الآن قضية غائبة ..

غيبها فهم خاطئ عنها، وأبقى لنا منها في عقولنا فكرة (اللين) المحدودة، فصرنا نفهم أن الحكمة هي كلمة لين أو موقف رقة، فضاعت الأبعاد الهائلة لقضية الحكمة وأمسينا في فتنة نارها: فكر مشتت .. اشتعل ليحرق بقايا متفرقة .. من واقع يابس ومهيأ للاحتراق.

(١) متفق عليه: البخاري في الصلاة (٤٥٨ ـ ٤٥٩ /١) ، ومسلم في الإيمان (١٦٣) من حديث أنس رضي الله عنه وهو قطعة من حديث طويل .

والفتنة تزداد بمزيد الفكر المشتت، الذي يجعلها أشد إحراقا !
ومن كل نقطة احتكاك بين هوج ذهني مشتعل .. وخمول عقلي يساعد على الاشتعال .. تندلع النار.
أو بتعبير مباشر: من كل لقاء بين أدعياء ملكية المنهج الصحيح للدعوة ..
وبين الراقدين في انتظار كل ادعاء ..
تنشأ الاتجاهات النظرية المختلفة التي تضيف إلى نار الفتنة وقودا جديدا.
وقريب من واقع الفتنة المشتعلة .. نبع الماء الذي يطفئها.
نبع الحكمة .. الذي يجب أن يتفجر، وكل منا يترقب، لنحاصر معا تلك النار ونخمدها لنبدأ مرحلة جديدة يقوم فيها كيان إسلامي واحد صحيح.
يحميه من كل جانب: موقف حكيم ..
ويمتد به في كل اتجاه: كلمة وقوة حكيمة ..
وهذا الكتاب ..
في الابتداء: سعي عملي بخطوات منتظمة، لإنهاء تلك الفتنة.
وفي الانتهاء: إرساء أساسي لابد منه أمام أي ممارسة منهجية للدعوة.
كما أنه فاتحة لمتواليات منهجية، نتدراس من خلال كل متوالية منها ـ في كتاب جديد ـ أساسية من أساسيات الحركة. إن شاء الله.

والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.

رفاعي سرور

الفصل الأول

معنى الحكمة

الحكمة من المفاهيم العميقة .. متعددة الجوانب.

والأسلوب الصحيح في تعريف مثل هذه المفاهيم: هو جمع النصوص التي تضمنته من كل جوانبه، والخروج بتعريف محدد له من مجموع تلك النصوص .. لغة وشرعا.

الجانب الأول:

وفيه جاء تعريف ابن عباس للحكمة أنها:

(**معرفة القرآن** ناسخه ومنسوخه، ومحكمه ومتشابهه، ومقدمه ومؤخره، وحلاله وحرامه، وأمثاله - وفي رواية تفسيره - فإن القرآن قد قرأه البر والفاجر)[1].

وعند الطبري: أن الحكمة هي: (العلم بأحكام الله تعالى التي لا يدرك علمها إلا ببيان الرسول ﷺ، والمعرفة بها ، وما دل عليها). وأنها: (إصابة الحق بالعلم والعمل) [2].

كما جاء في الحكمة - من هذا الجانب - قولهم: الحكمة هي حجة العقل وفق أحكام الشريعة.

والمعنى المأخوذ من هذه التعاريف: أن الحكمة مفهوم منبثق عن أصل الشرع، وأنها تعني إصابة الحق والالتزام به، وعلى هذا فليست الحكمة كلاماً من عند الناس أو فلسفة بشرية بعيدة عن أصل الكتاب والسنة.

ولذلك كان فهم ابن عباس للقرآن أثرا لدعاء النبي ﷺ له أن يعلمه الله الحكمة بدليل قول ابن عباس [3] الذي رواه (ضَمّني النبي ﷺ إلى صدره وقال: اللهم علمه الحكمة)[4].

ولذلك رفض أحد الصحابة تعريفا للحياء، إدّعى صاحبه أنه حكمة، بعد تعريف رسول الله ﷺ: (سمعت عمران بن حصين قال: قال رسول الله ﷺ: (الحياء لا يأتي إلا بخير)، فقال بشير بن كعب: مكتوب في الحكمة: أن من الحياء وقارا، وأن من الحياء سكينة. فقال له عمران: أحدثك عن رسول الله ﷺ ، وتحدثني عن صحيفتك !)[5].

(١) انظر تفسير ابن كثير (١/٥٧١) وتفسير الطبري (٥/٥٧٦) .

(٢) راجع التفسير للطبري (٥/٥٧٦) ففيه آثار بهذا المعني .

(٣) أخرجه البخاري في فضائل الصحابة (٧/١٠٠) من حديث عكرمة عن ابن عباس .

(٤) ولذلك جاء في تفسير ابن كثير .

(٥) متفق عليه : البخاري في الأدب (١٠/٥٢١) ، ومسلم رقم (٣٧) من حديث عمران بن حصين.

ومن أجل الارتباط بين الحكمة وبين الحق والشرع، صار التفكير فيما لا ينبغي، وبما يخالف الشرائع إفراط في مفهوم الحكمة، حيث جاء في كتاب الكليات للبغوي: (إن الإفراط في الحكمة هو استعمال الفكر فيما لا ينبغي كالمتشابهات وعلي وجه لا ينبغي كمخالفة الشرائع).

وبذلك يكون الارتباط بين **مفهوم الحكمة وأصل الشرع والحق ..**

هو الجانب الأول من جوانب المفهوم.

الجانب الثاني:

وفيه جاء قول الله عز وجل: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاء وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيراً وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ﴾ (البقرة:٢٦٩).

وهو دليل على أن الحكمة إيتاء من الله عز وجل لمن يشاء من عباده.

ولذلك يقول ابن القيم: (والله تعالى أورث الحكمة آدم وبنيه، فالرجل الكامل من له ميراث كامل من أبيه، ونصف الرجل ـ كالمرأة ـ له نصف ميراث، والتفاوت في ذلك لا يحصيه إلا الله تعالى، وأكمل الخلق في هذا: الرسل صلوات الله وسلامة عليهم، وأكملهم أولوا العزم، وأكملهم محمد، صلى الله عليه وسلم) [١].

وقول رسول الله ﷺ: (لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها) [٢]، وفيه دليل على أن الحكمة كذلك تكون بالتعلم.

كما جاء في هذا الجانب قول رسول الله ﷺ: (أتاكم أهل اليمن هم أرق أفئدة وألين قلوبا، الإيمان يماني والحكمة يمانية) [٣] وفيه دليل على ارتباط صفة الحكمة بالتكوين الإنساني من خلال صفات أخلاقية محددة.

والعلاقة بين الحكمة و**الإنسان** من خلال **قدر الله** بإيتائها للإنسان، واكتسابها بالتعلم، والاستعداد **بالطبع الأخلاقي** هو الجانب الثاني من جوانب هذا المفهوم .

الجانب الثالث:

وفيه جاء تعريف الحكمة : بأنها العدل في القضاء، كما جاء أنها التجربة، حيث جاء في تعريف الإمام الزبيدي: (قولهم رجل حكيم: أي رجل أحكمته التجارب). وقد اتفق التفسير الشرعي مع المعنى اللغوي في هذين الأمرين، حيث ورد في معنى الحكمة: أنها القضاء، لقول رسول الله ﷺ:

(١) والسفهاء: جمع سفيه ، كما أن الحكماء: جمع حكيم، والسفيه: هو الجاهل الضعيف الرأي، القليل بمواضع المصالح والمضار، ولهذا سمي الله النساء والصبيان: سفهاء في قوله تعالى: (ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قياما). قال عامة علماء السلف. هم النساء والصبيان.

(٢) متفق عليه: البخاري في العلم (١/١٦٥) ، ومسلم رقم (٨١٦) عن ابن مسعود.

(٣) متفق عليه: البخاري في المغازي (٨/٩٩) ، ومسلم رقم (٥٢) في الإيمان عن أبي هريرة.

(ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها) [1]، كما ورد أن الحكمة هي **التجربة** في قول رسول الله ﷺ: (لا حليم إلا ذو عثرة .. ولا حكيم إلا ذو تجربة) [2].

ثم يضاف إلى هذين الأمرين أمر ثالث؛ وهو إجماع المفسرين على أن الحكمة هي **السنة**.

وبذلك تكون الحكمة قد جاءت بمعنى القضاء والتجربة والسنة.

وبالنظر في هذه الأمور الثلاثة نجد أنها تتفق في أصل واحد وهو (الواقع).

حيث أن القضاء هو حكم في (واقع) معلوم.

وأن التجربة هي حقيقة مستنبطة من (واقع) مشاهد.

وأن السنة هي (واقع) تطبيق القرآن.

وقد جاءت علاقة الحكمة بالواقع بصفة مباشرة في تعريف الحكمة مثل قولهم:

(هي العلم بحقائق الأشياء والعمل، بمقتضاها) [3] وقولهم: أن الحكمة هي (علم بأحوال أعيان الموجودات على ما هي عليه في نفس الأمر بقدر الطاقة البشرية) [4].

وارتباط الحكمة **بالواقع** هو الجانب الثالث من جوانب المفهوم.

الجانب الرابع:

وفيه جاء قول الله عز وجل: ﴿حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ﴾ (القمر:٥) وبالغة تعني أنها تبلغ منتهاها وغايتها.

كما جاء في تعريف الحكمة عن الحسن بن على أنها: (الحق في المعنى .. والغاية في الإشارة).

وقد عرف ابن القيم الحكمة بما يؤكد معنى الغاية وذلك في قول الله ﴿حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ﴾ (القمر:٥) وقوله ﴿وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ (النساء :١١٣)، وقوله ﴿وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيراً﴾ (البقرة:٢٦٩) حيث قال: (الحكمة هي العلم النافع والعمل الصالح، وسميت الحكمة؛ لأن العلم والعمل قد تعلقتا بمتعلقاتها، وأوصلا إلى غايتها، وكذلك لا يكون الكلام حكمة حتى يكون موصلا إلى الغايات المحمودة، والمطالب النافعة، فيكون مرشداً إلى العلم النافع والعمل الصالح، فتحصل الغاية المطلوبة).

وواضح من التعريف، علاقة مفهوم الحكمة بمعنى **الغاية**.

وارتباط مفهوم الحكمة بمعنى الغاية هو الجانب الأخر من جوانب المفهوم.

---

(١) مرّ قريبا وأوله: لا حسد إلا في اثنتين.

(٢) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (٢/٢٦) وأحمد في مسنده (٣/٦٩)، والترمذى في البر والصلة رقم (٢٠٣٣) وقال: حسن غريب. والحاكم (٢/٢٩٣) وصححه ووافقه الذهبي وابن حبان (١/٢٠٨).

(٣) تعريف الإمام الزبيدي في كتاب تاج العروس.

(٤) تعريف صاحب المنار.

وبعد التحديد المجرد لجوانب مفهوم الحكمة من خلال علاقته:
بالشرع ، والإنسان ، والواقع ، والغاية ..
يكون التعريف العام بها بعد ارتباطها بمفهوم الدعوة، أنها:
حاسة الصواب الكامنة في كيان الداعية ..
محددة له في واقع الدعوة ..
سبيل الوصول إلى الغاية.

* * *

- حكمة الدعوة:

واضح من تعريف الحكمة، أنها مفهوم واقعي عن أصل شرعي، يستحيل تحقيقه في فراغ عملي، أو إصداره عن عقل بشري.

ولذلك فإنه مما يتنافى مع مفهوم الحكمة، أن يكون هناك أي إضافة فكرية إلى هذا الفراغ العملي الذي تعيشه الدعوة، باعتبار أن هذه الإضافة الفكرية، تضخيم لفتنة الفكر القائمة، بالظهور النظري للاتجاهات والمناهج ، في غيبة الواقع الصحيح الذي يعتبر مقياساً أصلياً في تحديد المنهج الصحيح للعمل.

ومن هنا كان إنشاء **الواقع الصحيح** .. هو الخطوة الأولي في تحقيق معنى الحكمة .

ولذلك يحدثنا النبي ﷺ بأن الحكمة ابنة الواقع فيقول : (الإيمان يماني والحكمة يمانية)[1] فوصف الحكمة بأهل اليمن ، فجعل الواقع بذلك هو الأصل ، والحكمة موصوفة به ، مما يؤكد أنه لا وجود للحكمة إلا بالواقع.

ولذلك يضرب رسول الله -ﷺ- مثلاً لواقع الحكمة بالا شعريين وهم أهل اليمن، فقال ﷺ: (إني لأعرف أصوات رفقة الأشعريين بالقرآن حين يدخلون بالليل، وأعرف منازلهم من أصواتهم بالقرآن بالليل، وإن كنت لم أر منازلهم حين نزلوا بالنهار، ومنهم حكيم إذا لقي الخيل -أو قال العدو - قال لهم : إن أصحابي يأمرونكم أن تنظروهم)[2].

وقد ورد في هذا الحديث عدة أقوال منها: أن حكيم اسم رجل معين وهذا قول بعيد، والأقرب أن قول رسول الله ﷺ (ومنهم حكيم إذا لقي الخيل أو العدو ...)، أن هذا مثل تطبيقي لمقتضى الحكمة وهو أن الوصول إلى مرحلة القتال لا يكون إلا بعد استنفاد أقصى طاقات التأني وهو المقصود بكلمة (أن تنظروهم) وهذا يعني أن قول رسول الله مقصود به ظاهرة سلوكية ناشئة في الواقع عن طبيعة الحكمة في أهل اليمن.

(١) سبق تخريجه .
(٢) متفق عليه : البخاري (٧/٤٨٥) ، ومسلم رقم (٢٤٩٩) عن أبي موسى الأشعري.

فالواقع الصحيح مقياس للحق ..

ودليل ذلك هو التعبير القرآني عن الخطأ الشرعي باستحالة الحدوث في الواقع كما في قول الله تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ (المجادلة :٢٢).

فالأصل في الآية أنها نهي عن مودة الكافرين، ولكن هذا النهي جاء في صيغة استحالة الحدوث: (لا تجد) لأن المنهي عنه شرعاً؛ مستحيل حدوثه في الواقع الصحيح.

والواقع الصحيح دليل للإثبات الشرعي ..

ولذلك كان الإمام مالك يعتبر عمل أهل المدينة -باعتبارهم الواقع الصحيح- أقوى إثباتاً للأحكام من الأحاديث الصحيحة، إذا كان هناك خلاف بين الاثنين. (الواقع والنص)[1]

والواقع الصحيح أصل في حجة الله على الكافرين ..

ولذلك يدحض القرآن حجة الكافرين بواقع الاستجابة: ﴿وَالَّذِينَ يُحَاجُّونَ فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا اسْتُجِيبَ لَهُ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ (الشورى:١٦) .

وعلى أساس هذه القاعدة كان الحوار الذي بين هرقل ملك الروم وأبو سفيان حول رسول الله ﷺ، والذي تساءل فيه هرقل عن شواهد واقعية محددة، ثم شهد بعدها بنبوة النبي ﷺ، وكانت هذه الشواهد كافية عنده، دون أن يناقش نصاً قرآنياً واحدا - وهذا ما يثبت قيمة الواقع في إثبات صواب المنهج - وكانت التساؤلات تدور حول ما يتعلق بصاحب الدعوة ونفي الشبهات عنه.

أيغدر.. ؟ أيكذب.. ؟ هل قال أحد مقالته.. ؟

هل من أبيه مَنْ مَلَك.. ؟ هل هو فيكم ذو نسب .. ؟

وما يتعلق بواقع الدعوة ويثبت صحته:

أفقراء الناس اتبعوه أم أغنياؤهم.. ؟ هل يرتد أحد عن دينه بعد أن يدخل فيه.. ؟

كيف حال الحرب بينكم.. ؟ أيزيدون أم ينقصون.. ؟[2].

وما نعنيه بالواقع الصحيح للدعوة على وجه التحديد:

هو الجماعة المسلمة التي تبلغ كلمة الله .. ثم تقاتل حتى لا تكون فتنة، ويكون الدين كله لله.

إذ أن هذا الواقع بذلك التحديد، هو الوضع المقابل للتفرق والاختلاف.

فمن ناحية **التبليغ** يكون الدليل هو قول الله عز وجل:

---

(١) يراجع كتاب (صحة أصول مذهب أهل المدينة للإمام ابن تيمية)

(٢) البخاري في الإيمان (١/٣١) من حديث ابن عباس رضى الله عنه . وقد استدل البخاري لتعليقات هرقل على إجابات أبي سفيان في أبواب كثيرة. مثال ذلك : باب قوله الله تعالى : (هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين) والحرب سجال . وباب من استعان بالضعفه الصالحين في الحرب وغيره . والحديث بنصه البخاري .

﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ. وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (آل عمران:١٠٤،١٠٥).

ومن ناحية **القتال** يكون الدليل هو قول الله:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ. كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ. إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ﴾ (الصف: ٢-٤).

وإذا كان إنشاء الواقع الصحيح هو الخطوة الأولي في تحقيق معنى الحكمة ..

وكانت الجماعة هي التحقيق العلمي لمفهوم الواقع الصحيح ..

فإن قيام هذه الجماعة؛ يكون بداية البدايات في تحقيق هذا المعنى.

* * *

الفصل الثاني

قيام الجماعة الواحدة

ومهمة قيام الجماعة الواحدة تقوم أساساً على الاتفاق الفكري ، ولكن هذا الاتفاق في وضع الفتنة أمر صعب ، ولذلك يجب أن تقوم الجماعة الواحدة في وضع الفتنة على أساس الائتلاف القلبي.

وتقديم أساس الائتلاف القلبي على أساس الاتفاق الفكري، حكم من أحكام هذه الفتنة .

وقد حدد النبي ﷺ لكل صورة من صور الفتن موقفاً يجب اتخاذه ، بحيث يمكن لنا تحديد قاعدة عامة يتم بها اتخاذ الموقف الصحيح لأي صورة من صور الفتنة، وهو الموقف الذي إذا التزمة كل المسلمون: توقفت الفتنة، وإذا التزمة أي مسلم: تحققت له النجاة منها. وهذه القاعدة يتضمنها هذا الحديث:

عن أبي ذر قال : ركب رسول الله ﷺ وأردفني خلفه فقال: (يا أبا ذر ، أرأيت إن أصاب الناس جوع شديد لا تستطيع معه أن تقوم من فراشك إلى مسجدك، كيف تصنع ؟ قلت: الله ورسوله أعلم !، قال: تعفف . قال: يا أبا ذر أرأيت إن أصاب الناس موت شديد كيف تصنع ؟ قلت: الله ورسوله أعلم !، قال: اصبر . قال: يا أبا ذر أرأيت إن قتل الناس بعضهم بعضاً حتى تغرق حجارة البيت في الدماء كيف تصنع ؟ قلت: الله ورسوله أعلم !، قال: اقعد في بيتك وأغلق عليك بابك، قلت: فان لم أُترَك، آآخذ سلاحي ؟! قال : إذن تشاركهم فيما هم فيه !، ولكن إن خشيت أن يروعُك شعاع السيف .. فألق طرف ردائك على وجهك؛ كي يبوء بإثمه وإثمك)[1].

وواضح من الحديث ثلاث صور للفتنة: فتنة الجوع ، وفتنة الموت ، وفتنة الاقتتال.

ففي فتنة الجوع .. كان الموقف الصحيح هو: التعفف.

وفي فتنة الموت .. كان الموقف هو: الصبر.

وفي فتنة الاقتتال .. كان الموقف هو: عدم المشاركة، حتى لو بلغ الأمر أن يُقتَل المسلم دون أن يدافع عن نفسه وإن كان الأصل هو: (من قُتِلَ دون دمه فهو شهيد)[2] ولكن الفتنة تقتضي اختيار القتل دون الدفاع عن النفس ، وفي هذا دليل على أن للفتنة أحكاماً خاصة.

(١) أخرجه أبو داود (١١/٣٤٠) وابن ماجه رقم (٣٩٥٨) وأحمد (٥/١٤٩) والحاكم (٢/١٥٧) وسنده حسن .
(٢) البخاري في المظالم (٥/١٢٣) من حديث ابن عمرو ولفظه :(من قتل دون ماله فهو شهيد) .

فإذا كانت الفتنة فتنة فكرية، فإن الموقف الصحيح يقتضي التوقف عن الجدل، والظهور النظري للاتجاهات الحركية، كما يقتضي استفاضة الحب وتحقيق الود والتجمع بالتآلف القلبي.

وهذه البداية شرط في حدوث هذا التجمع .. وصوابه.

بمعنى أن اتفاقنا على أننا واقعين في فتنة ذات طبيعة فكرية، يقتضي بأن تكون الألفة بيننا مرهونة بمدى الاتفاق، وقرار الألفة حكم من أحكام مواجهة الفتنة حسب قاعدة التناسب بين طبيعة الفتنة وأحكام مواجهتها، والمشار إليها في الحديث.

ويصبح اتفاقنا على أننا واقعين في فتنة فكرية، عذراً لنا فيما بيننا وبين أنفسنا، فيمتنع بذلك العذر، اتخاذ أي موقف صراع ومواجهة، بين الأطراف المختلفة .

والذي يحقق العون الأكبر على منع حدوث الصراع بين الاتجاهات المختلفة، هو إثبات مسافات التقارب بينها. ابتداء من الهدف المتفق عليه بين الجميع وهو قيام المجتمع المسلم.

وتقديم أساس التآلف القلبي على الاتفاق الفكري في قيام الجماعة لا يعني تجاهل قيمة هذا الاتفاق الفكري، بل يعني ضمان الوصول إلى هذا الاتفاق من خلال ذلك التآلف، فهناك حقيقة إسلامية في النفس الإنسانية تؤكد أثر القلب والإحساس على العقل والفكر اتفاقاً واختلافاً ، ومنطوق هذه الحقيقة هو قول رسول الله ﷺ : (الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تنافر منها اختلف)[1].

وكذلك فهناك حقيقة تؤكد أثر العقل والفكر على القلب والإحساس ومنطوقها قول رسول الله ﷺ : (لا تختلفوا فتختلف قلوبكم)[2].

ولكن التآلف الذي يتطلبه قيام الجماعة لا يقل عن الحد الذي حدده النبي ﷺ في قوله: (مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كالجسد الواحد إذا اشتكي منه عضو تداعي له سائر الجسد ـ من قريب ومن بعيد ـ بالسهر والحمى)[3] .

وكان هذا الحديث هو الواقع الذي عاشه المسلمون في عهد رسول الله ﷺ .

وهذا رسول الله ومعه أبو بكر في طريق الهجرة يشتد عليهما الحر ويصيبهما الجوع فيذهب أبو بكر ليبحث عن ظل لرسول الله فيجد ظلاً لا يكفي غير واحد فيهيئه لرسول الله ويجلسه فيه ثم يذهب ليبحث عن طعام فيجد راعي غنم فيستأذنه في شيء من اللبن ويذهب به إلى رسول الله ثم يقول : فشرب رسول الله حتى (ارتويت) وفي رواية حتى (رضيت) [4].

(١) علقه البخاري في الأنبياء (٦/٣٦٩) من حديث عائشة، وأخرجه مسلم في البر والصلة (٢٦٣٨) من حديث أبي هريرة.
(٢) أخرجه أبو داود (٣٦٤ـ ٢/٣٦٥) والنسائي (٨٩ ـ ٢/٩٠) من حديث البراء بن عازب وسنده صحيح.
(٣) متفق عليه: البخاري في الأدب (١٠/٤٣٨) ، ومسلم في البر والصلة (٢٥٨٦) من حديث النعمان بن بشير.
(٤) متفق عليه : البخاري في المناقب (٦/٦٢٢) ، ومسلم في الأشربة (٢٠٠٩) عن البراء وانظر صحيح مسلم (٤/٢٣٠٩).

وهذا أبو هريرة يذهب إلى رسول الله ﷺ فيقول له : يا رسول الله ، أذكر لي آية الإنفاق ، فيضحك رسول الله ويقول له : (انك جائع يا أبا هريرة .. ويعطيه لبنا) [1].

رسول الله يشرب، وأبو بكر يرتوي ويرضى ..

ويجوع أبو هريرة، ويشعر رسول الله ﷺ ..

وبعد قيام الجماعة بالتآلف ، والمواجهة مع الجاهلية ، تنشأ عوامل أخرى تزيد من التآلف وتعمق الترابط .. وأبرز تلك العوامل هو الإحساس بالخطر الذي يحيط بالجماعة.

وقد انصهرت بهذا الإحساس مشاعر المهاجرين والأنصار في بوتقة الشدة التي بلغت أقصاها في غزوة الأحزاب، ولذلك يثبت القرآن الكريم أن قيام العلاقة الإسلامية الكاملة، كان نتيجة طبيعية لمعايشة تلك المحنة.

فيصور لنا تلك العلاقة بخلفية الأحداث التي عاشها المهاجرون والأنصار في مواجهة خطر الأحزاب، ثم يجعل هذه العلاقة التي عمقتها المحنة، عمقاً للعلاقة الإسلامية على امتدادها التاريخي وإلى قيام الساعة.

فجاء في سورة الحشر: ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾ (الحشر:٢)

ثم يقول: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا من ديارهمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ . وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ من قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلاَ يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ (الحشر: ٨،٩)

ثم يقول : ﴿وَالَّذِينَ جَاؤُوا من بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (الحشر:١٠)

وفي سورة الأحزاب .. يحدد القرآن الأسس الشرعية التي تنتظم بها العلاقة بين المؤمنين، ولكنه يذكر بعد تلك الأسس عمق المحنة الذي قامت به تلك العلاقة أصلاً فيقول:

﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُوْلُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلاَّ أَن تَفْعَلُوا إِلَى أَوْلِيَائِكُم مَّعْرُوفًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾ (الأحزاب:٦)

(١) البخاري في الرقاق (١١/٢٨١) من حديث أبي هريرة.

وهذه هي الأسس، ثم يقول بعدها : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا (٩) إِذْ جَاؤُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتْ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا﴾ (الأحزاب: ٩،١٠)

وفي واقع الإيمان الصحيح، لا تؤثر نتائج المواجهة، ولا تغير مشقاتها في حقيقة الحب والتآلف الذي قامت عليه الجماعة، فلا يشعر فرد أن الجماعة هي التي جَرَّت عليه هذا الأذى. وقد أثبت لنا النبي ﷺ هذه الحقيقة عندما بعث رجلاً من الصحابة ليبحث عن رجل بين القتلى في إحدى الغزوات فوجده في لحظات الموت . فقال له: إن رسول الله ﷺ يقرئك السلام. فقال الرجل: أقرىء مني رسول الله ﷺ السلام ، وقل له: جزاك الله عنا خير ما جزى نبياً عن أمته [١].

وهذا شعور رجل مقتول نحو رسول الله الذي دعاه للقتال يقرئه السلام..

ويدعو الله أن يجزيه عنه خير ما جزى نبي عن أمته.

وبهذا التآلف .. تحقق الاتفاق التلقائي بين مواقف الصحابة في أدق المواقف وأخطرها، فبهذا التآلف علم عمر أن قتال مانعي الزكاة حق، عندما وجد أن صدر أبي بكر قد شرح لقتالهم ولذلك يقول: (فما أن وجدت أن صدر أبي بكر قد شرح لقتالهم، حتى علمت أنه الحق) [٢].

وبهذا التآلف اتفق عمر في كل ما أراد أن يقوله أبو بكر في سقيفة بني ساعده تلقائيا ، وذلك عندما اجتمع المهاجرون والأنصار في السقيفة، لاختيار الخليفة بعد وفاة رسول الله ﷺ، أراد عمر أن يتكلم فمنعة أبو بكر وتكلم هو .. فقال عمر: (فوالله ما ترك كلمة كنت أريد أن أقولها .. إلا قالها) [٣].

وقد قدم النبي ﷺ حب الصحابة له دليلاً على الولاء، عندما قال المتحدث عن قريش في معاهدة الحديبية: (أجئتنا برعاع الناس ، ما أراهم إلا تاركيك ومنفضين عنك) [٤].

فما أن توضأ رسول الله عليه وسلم حتى أخذت الصحابة بقية وضوئه تتمسح به وما أمرهم أمراً إلا ابتدروا أمره .. فرجع المتحدث عن قريش يقول: (لقد رأيت الروم وقيصر .. ورأيت الفرس وكسرى .. ما وجدت قوماً يعظمون ملكهم، كما يعظم أصحاب محمد محمدا، وأرى أن تصالحوه).

(١) الصحابي الذي كان في لحظات الموت هو: سعد بن الربيع الأنصاري والذي جاءه هو: أبي بن كعب. أسد الغابة (٢/٣٤٨).

(٢) متفق عليه: البخاري في الزكاة (٣/٢٦٢) ، ومسلم في الإيمان رقم (٢٠) عن أبي هريرة .

(٣) أخرجه البخاري في فضائل الصحابة (١٩ ـ ٧/٢٠) من حديث عائشة رضى الله عنها ولكن ليس فيه جملة (ما ترك كلمة .) إنما فيه: ثم تكلم أبو بكر فتكلم أبلغ الناس . وعن ابن عباس رواه في الحدود (١٤٤ ـ ١٢/١٤٥) مطولاً.

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (٣٢٣ ـ ٤/٣٢٤) في قصة طويلة من حديث المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم وفيه: أنهم بعثوا إلي النبي صلى الله عليه وسلم عروة بن مسعود الثقفي فأتى رسول الله فجلس بين يديه فقال: يا محمد جمعت أوباش الناس ثم جئت بهم لبيضتك لتفضها .. الحديث. وسنده صحيح.

نهاية الفتنة الفكرية:

وبقيام الجماعة .. ينشأ الواقع الصحيح للفكر؛ لأن الجماعة هي الواقع الشرعي للتلقي، والمنظم الدقيق للفكر ، والحاكم الرشيد للعقل ، والحماية الحقيقية من الخطأ.

وبقيام الجماعة .. يصبح بقاؤها والحفاظ عليها أولى مبدئياً وعملياً، من محاولة الاتفاق على أي أمر .. طالما تحقق الاتفاق على الأصل الذي قامت به الجماعة.

حتى لا يترتب على تلك المحاولة انشقاق في كيان الجماعة التي قامت.

ودليل هذه الحقيقة: هو ما بينه رسول الله ﷺ أنه إذا كان المسلمون على أمر رجل واحد، وجاء من يشق عصاهم، يكون الصواب: هو قتل هذا الثاني[1].

حيث لن يكون لحقه قيمة .. في مقابل قيمة الجماعة الواحدة والمحافظة عليها.

ودليل آخر: هو الأمر بترك المراء مع الاعتقاد بأن ما عند الفرد وما يريد إثباته هو الحق ، وذلك في قول رسول الله ﷺ: (أنا زعيم ببيت في ربض الجنة، لمن ترك المراء وهو محق)[2].

حيث يتضح من الحديث أن ترك المراء -وهو من أخطر أسباب التفرق- هو الأمر الواجب .

ولو كانت محاولة الاتفاق على أي أمر أولى من المحافظة على العلاقة بين أفراد الجماعة، لما كان هناك أمر بترك المراء، رغم الاعتقاد بأن المراد إثباته هو الحق لأن الحديث يقول: (لمن ترك المراء وهو محق) ، ولذلك يجب أن تتحدد العلاقة بين الرأي الفردي ورأي الجماعة بما يضمن الاستفادة من فكر الفرد، مع تفادي خطر الرأي الفردي على الاتفاق الجماعي.

أساس هذه العلاقة هو حق الفرد في إبداء رأيه، بدليل قول رسول الله ﷺ: الدين النصيحة .. الدين النصيحة .. الدين النصيحة .. قالوا: لمن يا رسول الله ؟ قال: (لله، ولرسوله، ولأئمة المسلمين، وعامتهم)[3]. بشرط أن تنتهي علاقة الفرد برأيه بمجرد الإبداء، فلا يعجب به بعد إبدائه، حيث أن هناك نهياً عن الإعجاب بالرأي، ونصه قول رسول الله ﷺ : (ثلاث من علامات الساعة: شح مطاع .. وهوى متبع .. وإعجاب كل ذي رأي برأيه)[4].

وبذلك تعتبر الجماعة هي المرحلة الأولي في إنهاء فتنة الفكر ..

يتبعها في ذلك مرحلة ثانية وهي: إحكام الفكر ذاته.

---

(١) مسلم في الإمارة رقم (١٨٥٢) والآخر رقم (١٨٥٣) عن أبي سعيد ونصه (من أتاكم وأمركم جميع على رجل واحد يريد أن يشق عصاكم ويفرق جماعتكم فاقتلوه) والحديث الآخر (إذا بويع لخليفتين في الأرض فاقتلوا الأخير منهما).

(٢) حسن : أخرجه أبو داود (١٣/١٥٦).

(٣) أخرجه مسلم من حديث تميم الداري رقم (٥٥) في الإيمان.

(٤) أخرج الترمذي في التفسير (٣٠٥٨) وأبو داود (١١/٤٩٣) وابن ماجة (٤٠١٤) والبغوي في شرح السنة (١٤/٣٤٨) من حديث أبي ثعلبة الخشني مرفوعاً: (ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر، حتى إذا رأيت شحاً مطاعاً، وهوى متبعاً، ودنيا مؤثرة، وإعجاب كل ذي رأي برأيه، فعليك بخاصة نفسك). وسنده ضعيف. أما ما ذكر هنا أن من علامات الساعة شح مطاع .. فلا أراه حديثاً عن النبي صلى الله عليه وسلم. ولكن ثبت عند الطبراني في الأوسط: (ثلاث مهلكات .. فشحّ مطاع وهوى متبع وإعجاب المرء بنفسه).

الفصل الثالث

إحكام الفكر الإسلامي

والإحكام من أبرز معاني الحكمة .. ولذلك يعرف ابن القيم الدرجة الأولى من الحكمة فيقول: (أن تعطي كل شيء حقه، ولا تعديه حده، ولا تعجله عن وقته، ولا تؤخره عنه).

ثم يقول: وهذا الحكم عام لجميع الأسباب مع مسبباتها شرعاً وقدراً، فإضاعتها: تعطيل للحكمة، بمنزلة إضاعة البذر، وسقي الأرض، وتعدي الحد: كسقيها فوق حاجتها، بحيث يغرق البذر والزرع ويفسد، وتعجيلها عن وقتها: كحصاده قبل أوانه وكماله)[1].

وإحكام الفكر يعني تنظيم العلاقات بين حقائق الفكر الإسلامي، إذ أن لكل حقيقة في الإسلام حد لا ينبغي تجاوزه، والمساواة بين الحقائق في كونها (فكرة إسلامية) من أهم أسباب الاضطراب في محاولة تحديد منهج الحركة، ومن هنا جاءت تعبيرات النبي ﷺ بما يفيد العلاقات المنظمة بين الحقائق.

فمثلاً نجد التعبير بأم الكتاب. الذي جاء في قولة ﷺ: (لا صلاه لمن لم يقرأ بأم الكتاب)[2].

والتعبير بسيد الاستغفار الذي جاء في قوله ﷺ: (ألا أخبرك بسيد الاستغفار)[3].

والتعبير برأس الأمر الذي جاء في قوله ﷺ: (ألا أخبرك برأس الأمر، وعموده، وذروة سنامه ؟!: الجهاد)[4].

فتعبيرات (أم) و(سيد) و(رأس) تفيد العلاقة.

وكذلك نجد في تعبير النبي ﷺ حرصاً على ألا يطغى مفهوم على مفهوم تحقيقاً للإحكام بين المفاهيم، مثال قوله ﷺ: (أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فإذا قالوا لا إله إلا الله عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله)[5] ثم قرأ: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ . لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ (الغاشية :٢١-٢٢) وذلك حتى لا تطغى مهمة القتال على مهمة التذكير في فهم الناس.

---

(١) مدارج السالكين جـ ٢ ص ٤٦٩.

(٢) متفق عليه: البخاري في الأذان (٢/٢٣٧) ومسلم في الصلاة (٣٩٤) من حديث عبادة بن الصامت.

(٣) البخاري في الدعوات (١١/٩٧) من حديث شداد بن أوس.

(٤) صحيح: الترمذي في الإيمان (٧/٣٦٢) وقال حسن صحيح، والحاكم في التفسير (٢/٤١٢) وصححه على شرطهما ووافقه الذهبي والمسند (٥/٥٣١).

(٥) متفق عليه: البخاري في الإيمان (١/٧٥)، ومسلم في الإيمان أيضاً رقم (٢٢) عن ابن عمر.

وكذلك عندما بين النبي ﷺ بأن الوضوء وصلاة ركعتين وراءه يغفر ما تقدم من الذنوب، فإنه يحقق الإحكام بين الرجاء والغرور، عن عمران قال : (كان عثمان رضى الله عنه قاعداً في المقاعد، فدعا بوضوء فتوضأ ثم قال: رأيت رسول الله عليه وسلم توضأ في مقعدي هذا ثم قال: (من توضأ مثل وضوئي هذا ثم قام فركع ركعتين غفر له ما تقدم من ذنبه)[1] وقال: رسول الله ﷺ .. (ولا تغتروا).

وكذلك عندما يقول رسول الله ﷺ: (ما من مؤمن يموت له ثلاث أولاد، إلا كانوا له حجاباً من النار)[2]، فإنه عليه الصلاة والسلام يستثني استثناء هاماً فيقول: (إلا تحَلَّة القسم) وهو قول الله: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ (مريم:٧١) .

وبذلك تتقرر حقيقة الحجاب من النار بموت الثلاثة أولاد، مع حقيقة الورود عليها تحلة للقسم دون تناقض.

وأساس الإحكام الفكري في الإسلام، هو أن تكون كل الحقائق متهجة نحو غاية نهائية واحدة.

ولتحقيق ذلك يجب قياس كل حقيقة إلى غايتها، فمثلاً:

حقيقة الإيمان تقاس بقول (لا إله إلا الله) بدليل قول رسول الله ﷺ : (الإيمان بضع وسبعون شعبة أعلاها لا إله إلا الله ، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان)[3].

وحقيقة العمل تقاس بالصلاة بدليل قول رسول الله ﷺ عندما سئل: أي العمل أفضل قال: (الصلاة على وقتها، قيل: ثم أي؟ قال: بر الوالدين. قيل: ثم أي ؟، قال: الجهاد في سبيل الله)[4] وقوله ﷺ : (أول ما يحاسب عليه العبد يوم القيامة الصلاة ، فإن صلحت صلح سائر عمله ، وإن فسدت فسد سائر عمله)[5].

وحقيقة المقام والمكانة تقاس إلى مقام النبوة بدليل قول الله عز وجل: ﴿فَأُوْلَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاء وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ (النساء: ٦٩) وقول النبي صلي الله عليه وسلم: (أنا كافل اليتيم في الجنة هكذا)[6]، وأشار بإصبعيه السبابة والوسطى، وقوله: (التاجر الأمين الصدوق مع النبيين والصدقين والشهداء والصالحين)[7] .. وهكذا.

(١) متفق عليه: البخاري في الوضوء (١/٢٥٩) ، ومسلم في الطهارة (٢٢٦) عن عثمان بن عفان.
(٢) متفق عليه: البخاري في الجنائز(٣/١٨) ، ومسلم في البر (٣٦٣٢) عن أبي هريرة ، وتفسير تحلة القسم من كلام البخاري وليس بمرفوع.
(٣) مسلم: (٣٥) في الإيمان من حديث أبي هريرة وعند البخاري نحوه في الإيمان أيضاً (١/٥١).
(٤) البخاري (٢/٩) من حديث ابن مسعود.
(٥) أخرجه الترمذي (٤١٣) وحسنه والنسائي (١/٢٣٢) ، وأحمد (٥/٣٧٧)، والحاكم ١/٠٢٦٣) وصححه ووافقه الذهبي.
(٦) البخاري (١٠/٢٣٦) عن سهل بن سعد رضى الله عنه.
(٧) الترمذي (١٢٠٩) ، والحاكم (٢/٦) من طريق الحسن عن أبي سعيد.

وقيمة الإحكام الفكري في الإسلام ترجع أساساً إلى أن هذا الإحكام الفكري هو المقدمة الطبيعية للإحكام التطبيقي، الذي يضمن قيام الواقع الإسلامي بصبغته الخالصة، كما أرادها الله سبحانه.

والحكمة هي أساس تحقيق هذه الصبغة ، لأن الحكمة هي الحكم التطبيقي بين الحقائق.

فلا يجوز أن تأخذ الدعوة صورة كلامية بحتة .. أو صورة قتالية بحتة .. أو صورة اعتزالية بحتة .. رغم أن التبليغ بالكلمة حق شرعي في ذاته .. والقتال حق شرعي في ذاته .. والاعتزال أو الهجرة حق شرعي في ذاته.

ولكن الحكمة هي التي تعطي لكل حق شرعي في ذاته؛ حق التطبيق في الواقع .

ومن هنا يجب أن تكون هناك حساسية شديدة في قبول أي صورة تطبيقية للفكر في الواقع.

وهؤلاء هم صحابة رسول الله ﷺ يشتكون رجلاً إلى رسول الله لأنه يقرأ في كل صلاة بسورة: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾[1] رغم أن الفعل جائز شرعاً إلا أنهم رأوا في هذا العمل مظهراً جديداً في التطبيق.

وعلى أساس الارتباط بين الحكمة والإحكام، كان التقابل بين الحكمة والبدعة، ذلك أن البدعة هي في تطبيقها، فكرة دخيلة على إطار الفكر الإسلامي المُحكم.

وقد أورد الإمام ابن تيمية في التقابل بين الحكمة والبدعة قول الإمام أبو عثمان النيسابوري: (من جلس إلى صاحب بدعة حرم الحكمة). كما قال: (من أمَّر السنة على نفسه قولاً وعملاً نطق بالحكمة، ومن أمَّر الهوى على نفسه قولاً وعملاً نطق البدعة)[2] .

وأقرب تشبيه للعلاقة بين الحقائق في واقع الفكر الإسلامي، هي العلاقة بين العناصر الكونية التي تشكل بصفة دقيقة الواقع الكوني.

وتماماً مثلما يتجاوز العنصر الكوني حدوده فتنشأ الظواهر الكونية المدمرة، كذلك تكون الحقيقة عندما نتجاوز بها حدودها في واقع الدعوة.

ولنعمق هذا التصوير بمثال لحقيقة من الحقائق التي تجاوزنا بها حدودها، لنرى آثار هذا التجاوز ..

حقيقة الحذر .. وحدودها الصحيحة في واقع الفكر هي:

حد التوكل على الله، الذي نخوض به الأحداث ..

وحد الإيمان بالقدر، الذي نتقبل به نتائج الأحداث ..

ولكن بتجاوز الحذر لهذين الحدين، صار الحذر جبناً يقعد عن العمل، وريبة تفسد العلاقة

---

(١) علقه البخاري في (الآذان) (٢/٢٥٥) عن أنس ووصله الترمذي والبزار وغيرهم .

(٢) كتاب الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان للإمام ابن تيمية ص ٣٥ .

وتبدد الاطمئنان. وأغرق تجاوزنا بحقيقة الحذر لحدودها، واقع الدعوة بظاهرة مدمرة أشد تدميراً .. وهي ظاهرة الاتهام بالعمالة، التي هبطت بمستوي الثقة في مجال الدعوة بصفة عامة ولم تضر فقط بالعناصر التي أصابها هذا الاتهام، لأن افتراض وجود عميل بين المسلمين معناه افتراض العمالة في كل مسلم، والقاعدة أنه لا يوجد من هو فوق الشبهة. وهذا لا يرجع إلى واقع الشخصية الإسلامية. ولكن يرجع إلى أن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم.

وبافتراض العمالة يضيع الاطمئنان ..

فلا تقوم علاقة، ولا تكون جماعة، ولا تصير دعوة، .. وهذا هو البعد النهائي للافتراض.

وقد كانت ظاهرة الاتهام بالعمالة نتيجة مباشرة لفتنة الفكر ..

وذلك عندما تجاوز التفكير العقلي حد التوكل على الله والإيمان بالقدر، مع فقدان التآلف في مجال الدعوة، فصارت العلاقة الإنسانية في هذا المجال علاقة عقلية جافة، مهيأة لتقبل أي محاولة خبيثة لتفتيتها، ومن هنا يمكن القول بأنه إذا كان التآلف القلبي أساساً للاتفاق المنهجي من حيث الفكر؛ فإنه في نفس الوقت أساس للاطمئنان الوجداني، الذي يعتبر شرطاً جوهرياً للممارسة الحركية بعد الاتفاق المنهجي.

والعلاقة الإنسانية في مجال الدعوة لا تقوم إلا بالاطمئنان المطلق والثقة الكاملة.

وهذا حديث يؤكد هذه الحقيقة: (عن أبي سعيد الخدري قال: خرجنا حجاجا -أو عمارا- ومعنا ابن صياد، قال: فنزلنا منزلاً فتفرق الناس وبقيت أنا وهو، فاستوحشت منه وحشة شديدة، مما يقال عليه [1] قال: وجاء بمتاعه فوضعه على متاعي، فقلت: إن الحر شديد ! فلو وضعته تحت تلك الشجرة !، قال ففعل، قال فُرفعت لنا غنم، فانطلق فجاء بعس فقال: اشرب أبا سعيد، فقلت : إن الحر شديد ! واللبن حار ! -ما بي إلا أني أكره أن أشرب عن يده-، أو قال: آخذه عن يده. فقال يا أبا سعيد: لقد هممت أن آخذ حبلاً فأعلقه بشجرة، ثم أختنق مما يقول الناس ، يا أبا سعيد: من خفي عليه حديث رسول الله ﷺ ما خفي عليكم معشر الأنصار ، ألستَ من أعلم الناس بحديث رسول الله عليه وسلم ؟ أليس قد قال رسول الله ﷺ: هو كافر [2] وأنا مسلم ؟ أو ليس قال رسول الله ﷺ: هو عقيم لا يولد له، وقد تركت ولدي بالمدينة ؟ أليس قال رسول الله ﷺ : لا يدخل المدينة ولا مكة، وقد أقبلت من المدينة وأنا أريد مكة ؟ قال أبو سعيد الخدري: حتى كدت أن أعذره ، ثم قال: أما والله إني لأعرفه وأعرف مولده وأين هو الآن ! قال قلت له : تباً لك سائر اليوم) [3] .

(١) كان ما يقال عليه أنه هو المسيح الدجال .

(٢) يقصد الدجال .

(٣) أخرجه مسلم من حديث أبي سعيد رقم (٢٩٢٧).

فمن خلال هذا النص ندرك أنه كان هناك اقتناع عقلي ببراءة ابن صياد من الاتهام، ولكن هذا الاقتناع لم يكن كافياً لقيام علاقة حقيقية، بدليل رفض أبي سعيد الخدري أن يكون متاعهما فوق بعضه، ورفضه أن يشرب اللبن من يده، ورغم كل ما ذكره له ابن صياد من أدلة، فإنه يقول: لقد كدت أعذره .. أي أنه لم يعذره العذر الكامل.

كما ندرك إحساس المتهم بمن حوله من الناس، وكيف دفعه هذا الإحساس إلى قوله: (لقد هممت أن آخذ حبلاً فأعلقه بشجرة ثم أختنق مما يقول الناس) .

وهذا أقرب تعبير يكشف لنا الواقع النفسي لمن يعيش في موضع الاتهام بين الناس وهو بريء، وكما كانت عقلانية العلاقة الإنسانية في مجال الدعوة وجفافها جواً لظهور الاتهام بالعمالة، فإنها كانت عاملاً مساعداً على تضخيم تلك الظاهرة وذلك من خلال مواجهتها بصورة عقلية بوليسية بحتة.

وإنهاء ظاهرة الاتهام بالعمالة لا يتحقق بالأساليب البوليسية التي قد يتصور البعض أنها وسيلة الاطمئنان، وذلك لسبب بسيط؛ وهو أن الاتهام بالعمالة من الاتهامات التي تفقد المتهم قدرته في الدفاع عن نفسه.

وأقرب تشبيه للاتهام بالعمالة في هذه الناحية هو الاتهام بالجنون .. !

فمثلما تتحول محاولة المتهم بالجنون في الدفاع عن نفسه إلى ظاهرة من ظواهر الجنون في تصور الناس، فإن أي محاولة يحاولها المتهم بالعمالة للدفاع عن نفسه، ستقابل في ذهن الناس على أنها سلوكاً يحتمه دور العمالة الذي يؤديه .. فتضيع المحاولة هباء منثورا !!.

وبذلك نرى كيف وضع الاتهام بالعمالة الدعوة في طريق مسدود من حيث الاتهام ذاته ومن حيث فقدان القدرة على مواجهة ذلك الاتهام .

وإذا كان العلاج قد بدا صعباً أو مستحيلاً، فإنه يبدو سهلاً ممكناً في ضرورة إحكام العلاقة بين الحقائق الإسلامية من حيث التطبيق.

فإذا كان بجانب حقيقة الحذر، حقيقة التوكل على الله، وحقيقة حسن الظن، وحقيقة الإيمان بالقدر خيره وشره، لَتَحقَّقَ الاتفاق بين الحقائق..

وهذا هو الإحكام..

وتلك هي الحكمة.

الفكر والقدر:

بعد أن اتفقنا على ضرورة الإحكام الفكري بتحديد العلاقة بين الحقائق، نريد أن نتفق على تحديد العلاقة بين الفكر ذاته -بعد إحكامه-، وبين القدر الإلهي ..

باعتبار أن قيام الواقع الإسلامي يرجع في النهاية إلى قدر الله ..

ولا يرجع إلى التفكير البشري المحدَّد لقيام هذا الواقع .

ولذلك يقول ابن القيم في تعريف الحكمة: (الحكمة حكمتان: عملية وعلمية، فالعلمية: الاطلاع على بواطن الأشياء، ومعرفة ارتباط الأسباب بمسبباتها خلقاً وأمراً، قدراً أو شرعاً)[1].

وحقيقة أن قيام الواقع الإسلامي يرجع في النهاية إلى قدر الله ، بديهية يدركها كل داعية ..

ولكن هذا الإدراك غالباً ما يكون مجرد مبدأ نظري، لا يؤثر في واقع الحركة من حيث تحديد المنهج .. أو أسلوب العمل.

والعلاقة بين الفكر والقدر يحددها من حيث الواقع عدة حقائق:

أن التفكير البشري مجرد سبب قد يحدث القدر بدونه، وقد يحدث بما يخالفه.

وهذا لوط عليه السلام يبحث بتفكيره عن ركن شديد فيقول: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾(هود:٨٠) ، وهو بواقعه يأوي إلى ركن شديد، فيقول الرسول ﷺ: (يرحم الله لوطاً ! لقد كان يأوي إلى ركن شديد)[2].

وهذا معناه أن قدر الإيواء من الله له، تحقق فيه دون تفكير مباشر منه.

وقد يحدث بما يخالف هذا التفكير، بدليل قدر حدوث غزوة بدر بما يخالف التفكير في الاستيلاء على القافلة ﴿وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ﴾(الأنفال:٧) بل قد يحدث القدر بما يضاد التفكير مباشرة.

وهذا يونس عليه السلام .. يفكر في الخلاص من القوم بالسفينة، فتكون هذه السفينة بقدر الله سبب هلاك، إذ يُلقَى منها في البحر فيلتقمه الحوت، وهو بتفكير البشر هلاك ليكون بقدر الله سبب نجاة.

من أجل ذلك فإن القرآن يعلمنا الإيمان بطلاقة القدر الإلهي، ومحدودية التفكير البشري فيقول عز وجل: ﴿فَعَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ﴾(المائدة:٥٢)، ردا على المنافقين الذين لا يؤمنون بقدرة الله على تخليص المؤمنين من الاستضعاف أصلاً، وتوجيها للمؤمنين الذين يؤمنون بقدرة الله على ذلك، ولكنهم قد يحددون هذه القدرة بصورة واحدة: وهي الفتح. فيقول الله : ﴿أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِ﴾(المائدة:٥٢) ، ﴿وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾(الحج:٤١).

(١) مدارج السالكين ج ٢ ص ٤٩٨.

(٢) البخاري في (الأنبياء) (٦/٤١١) ، ومسلم رقم (١٥١) من حديث أبي هريرة رضى الله عنه .

وقيام الواقع الإسلامي بصورته المادية، هو في النهاية أمر غيبي لا يمكن للذهن البشري أن يحتويه ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾(هود:١٢٣، النحل:٧٧)، وقد يفتن الفكر البشري بارتكازه على الأسس الشرعية أو النواميس الكونية، فيجزم بضرورة تحقيق النتيجة المحددة بهذه الأسس وتلك النواميس، ولكن القدر فوق الشرع وفوق الناموس ..

وهذه حقيقة الحقائق، وقمة اليقين التي تملأ قلب كل مسلم ..

حقيقة أن رسول الله سيدخل الجنة، يرد رسول الله ﷺ حدوثها إلى الله فيقول ـ كما في الصحيح ـ (والله إني لرسول الله .. لا أدري ما يفعل بي ولا بكم)[1] .

وأي محاولة احتواء ذهني لأمر غيبي هي تأله على الله، وتجاوز للحد البشري كما قدره الله.

وما سبق في تحديد العلاقة بين القدر الإلهي والفكر البشري، كان باعتبار تحقيق الواقع، ولكن من حيث تحديد المنهج أصلاً، فإن العلاقة تتحدد من خلال عدة أمور:

الأول: أن **التكاليف الشرعية** هي التي تتضمن **الأسباب القدرية** لتحقيق الواقع.

ولذلك فالخطأ الشرعي في مجال الدعوة .. يعني استحالة أو تأخير تحقيق هذا الواقع.

وليس لهذه القاعدة أي استثناء ..

وهذا رسول الله ﷺ تسأله اليهود عن الروح فيقول سأخبركم غداً، ولا يقول إن شاء الله، فلا ينزل الوحي إلا بعد فترة، يحزن الرسول ﷺ فيها حزناً شديداً، ويقول فيها اليهود: ذهب عنه شيطانه.

ولما نزل الوحي بالإجابة؛ نزل ومعه تصحيح وتحديد السبب .. الذي من أجله تأخر النزول[2].

الثاني: تحديد السنن القدرية الثابتة -وذلك بنصوص الكتاب والسنة- لتحقيق التوافق معها في مجال الحركة الإسلامية.

وقد وضح هذا التوافق وضوحاً كاملاً، في التحرك الإسلامي الأول، وبالتحديد في مجال القتال، حيث كان الأسلوب القتالي مرتبطاً بسنن إهلاك الكفار، لتحقيق المعنى القدري للقتال، وهو أنه عذاب الله للكفار بأيدي المسلمين ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾(التوبة : ١٤).

وهذه مقارنة سريعة بين سنن الإهلاك وأساليب القتال:

في فتح الطائف .. حاصر الرسول الطائف ثلاثة أيام ولم تفتح له، فقال: سنرحل غداً، فأرادت الصحابة القتال، فتركهم يقاتلون فجرحوا جراحات شديدة، ولم تفتح لهم، فقال: سنرحل غداً إن شاء الله، وتم الرحيل.

---

(١) البخاري في (الجنائز) من حديث أم العلاء (٣/١١٤) .

(٢) أنظر البخاري (٨/٤٠١) ومسلم (٢٧٩٤) . تفسير قول الله عز وجل ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا﴾(الإسراء:٢٣).

ثم بعث رسول الله ﷺ إلى عروة بن مسعود وهو مشرك من الطائف ودعاه إلى الإسلام فأسلم. فذهب إلى قومه فدعاهم إلى الإسلام فقتلوه .. فقال عليه الصلاة والسلام: (مثل عروة بن مسعود في قومه كمثل صاحب سورة ياسين وهو الذي قال الله فيه: ﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِن بَعْدِهِ مِنْ جُندٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ . إِن كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ﴾ (يس : ٢٨، ٢٩). وفتحت الطائف بعد قتل عروة بن مسعود)[١].

وفي فتح خيبر .. قال الرسول ﷺ: (الله أكبر .. خربت خيبر .. إنا إذا نزلنا بساحة قوم .. فساء صباح المنذرين) . توافقاً مع قوله الله: ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ . فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ﴾ (الصافات:١٧٦، ١٧٧).

وفي فتح مكة .. يطلب الرسول ﷺ من الصحابة أن يقولوا: (حطة)[٢] كما أمر الله بني إسرائيل أن يقولوها في دخول الأرض المقدسة، كما جاء في قول الله: ﴿وَقُولُواْ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ﴾ (البقرة:٥٨).

ولهذا قال الرسول بعد أن قالها الصحابة: (والله إنها الكلمة التي أمر بني إسرائيل أن يقولوها فلم يقولوها).

وفي غزوة الأحزاب .. علم رسول الله ﷺ أن الله سينصره على المشركين واليهود لما تحزبوا ضده وقال: (ابشروا معشر المسلمين) لأنهم بهذا التحزب حققوا سنة إهلاكهم ، لأنه من أفعال الله أن يهزم الأحزاب، ولهذا قال الرسول ﷺ: (اللهم منزل الكتاب .. ومجري السحاب .. وهازم الأحزاب .. اهزمهم وانصرنا عليهم)[٣] ولهذا عبر القرآن عن الكافرين بعد إهلاكهم بقوله: ﴿أُوْلَئِكَ الأَحْزَابُ﴾ (ص:١٣).

وكان الغزو صباحاً من أهم الأساليب القتالية التي حققت التوافق بين القتال وسنن إهلاك الكافرين .. حتى أصبحت الخيل هي المغيرات صبحا كما جاء في قول الله تعالى: ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا (١) فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا (٢) فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا﴾ (العاديات:١-٣).

والإصباح سنة إهلاك ..

بدليل قول الله في قوم لوط: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ (هود:٨١).

وقوله: ﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ﴾ (القمر:٣٨).

وقول الله: ﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ﴾ (الصافات:١٧٧).

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٤/٣٢٣) من حديث المسور بن مخرمه ومروان بن الحكم أنظر أسد الغابة (٤/٣٣) والإصابة (٢/٤٧٦) وسيرة ابن هشام (٢/٥٣٧).

(٢) البخاري (المغازي) (٨/١٦٤) من حديث أبي هريرة.

(٣) البخاري (٧/٤٠٦) ، ومسلم رقم (١٧٤٢) عن عبد الله بن أبي أوفى.

أما الأمر الثالث: في العلاقة بين الفكر البشري وقدر الله في تحديد منهج الدعوة، فهو أن الاستدلال **بالنصوص الإخبارية** عما سيكون في آخر الزمان وأشراط الساعة، لا يكون باعتبار أنها نصوص تكليفية يجب الالتزام بها، ولا باعتبار أنها سنن قدرية يلزم التوافق معها، بل هي **أقدار غيبية**، لا يلزمنا الاحتجاج بها. أما النصوص التكليفية فهي مدار هذا التأصيل.

والأمر الرابع: في العلاقة بين الفكر البشري والقدر الإلهي في تحديد منهج الدعوة، هو رفض **التفكير البشري البحت الذي لا يقوم على أصل شرعي**، أو سنة قدرية ثابتة، فهذا التفكير هو الذي سيتحول بالدعوة إلى حركة مادية، ويفقدها صفة الربانية، ولهذا نجد في واقع الدعوة الصحيح، المواقف التي تؤكد صفة الربانية بصورة واضحة:

- ففي الوقت الذي كان المسلمون فيه في أشد الحاجة إلى من يشاركهم قتال المشركين، يرفض رسول الله ﷺ رجلاً مشركاً يريد القتال معه ويقول له: (ارجع فإني لا أستعين بمشرك) [١] وبالتفكير المادي في الموقف كان يمكن مشاركة هذا الرجل ..

- ويأتي رجل آخر إلى الرسول ويقول: أقاتل أو أسلم. فيمنعه الرسول من القتال معه ويقول له: (بل أسلم .. ثم قاتل) [٢] فبايع وقاتل فقتل، فقال عليه الصلاة والسلام: (عمل قليلا وأجر كثيرا)، وبالتفكير المادي في المواقف كان يمكن تأجيل البيعة لأن القتال دائر ..

- وفي وقت القتال تقام صلاة الحرب لتصلي جماعة من المسلمين وتحميها الأخرى، وبالتفكير المادي كان يمكن تأجيل الصلاة حتى لا يضيع الوقت وإمكانيات القتال.

- وفي القتال يرفع السيف عن كل من قال لا إله إلا الله ، وهذا سؤال يسأله صحابي لرسول الله ﷺ : عن المقداد بن الأسود أنه أخبر أنه قال: يا رسول الله، أرأيت إن لقيت رجلاً من الكفار فقاتلني فضرب إحدى يدي بالسيف فقطعها، ثم لاذ مني بشجرة فقال أسلمت لله، أفأقتله يا رسول الله بعد أن قالها؟. قال رسول الله ﷺ: لا تقتله. قال فقلت: يا رسول الله، إنه قد قطع يدي، ثم قال ذلك بعد أن قطعها، أفأقتله ؟ قال رسول الله: (لا تقتله، فإن قتلته، فإنه بمنزلتك قبل أن تقتله، وإنك بمنزلته قبل أن يقول كلمته التي قال) [٣].

- ويدخل الدعاء كأقوى أسلحة القتال، ففي غزوة الأحزاب .. ينظم الرسول كل أموره ويعد كل عدته ثم يقول: (إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره، ادع الله يا براء أن يهزمهم وينصرنا عليهم !) [٤].

(١) أخرجه مسلم رقم (١٨١٧) من حديث عائشة رضى الله عنها .
(٢) البخاري في الجهاد (٦/٢٤) من حديث البراء بن عازب .
(٣) أخرجه مسلم في الإيمان رقم (٩٥) عن المقداد بن الأسود .
(٤) البخاري في المناقب (٨/٢٧٤) ومسلم رقم (١٦٧٥) عن أنس .

ثم يعلمنا النبي ﷺ أنه إذا كان البشر يحققون أهدافهم بقوتهم وإمكانياتهم المادية فلسنا مثلهم، فيقول: (إنما تنصرون وترزقون بضعفائكم)[1] .

لأنها دعوة ربانية .. تقوم بالقدر .. ولها أسباب وسنن[2].

* * *

(١) البخاري في الجهاد (٦/٨٨) عن سعد بن أبي وقاص .

(٢) يراجع كتاب قدر الدعوة للكاتب .

الفصل الرابع

تكوين الفرد المفكر

بعد إنشاء الواقع الصحيح للتفكير ..
وإحكام الفكر ذاته في تحديد المنهج ..
وتحديد العلاقة بين الفكر والقدر في قيام الواقع ..
تأتي مرحلة ثالثة، تنتهي بها فتنة الفكر القائمة .. وهي تكوين الإنسان المفكر.

ووجود الإنسان المسلم المفكر تفكيراً صحيحاً، هو الحل الأساسي لمشكلة الدعوة، حيث أن الفهم هو الموضع الحقيقي لتلك المشكلة. والإنسان هو صاحب الفهم، وقد صور لنا رسول الله ﷺ العلاقة بين المسلم ونصوص القرآن كنحلة تمتص الرحيق، وذلك عندما سمع بلالاً يتنقل في قراءته بين سور القرآن فقال: (إن مَثَل بلال كالنحلة، تأكل طيبا، وتضع طيبا، ثم هو حلو كله)[1].

وهذا التصوير يحدد لنا مهمة المسلم في فهم النص على أنها:
استخراج حقٍّ من رحيق القرآن .. فيه شفاء للناس.

وأي محاولة لفهم القرآن دون أن يتجاوز النص القرآني الحناجر، ودون أن يكون هناك القدرة الإيمانية على امتصاص رحيق الحق من النص فإنها سترجع فهماً خاطئاً وفكراً هزيلاً. وضرب رسول الله ﷺ فيما رواه البخاري ومسلم مثلاً لذلك، بحديثة المستفيض بشأن الخوارج وضلالهم مع عبادتهم فقال: (يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم)[2] وفي رواية في غير الصحيح (لا يجاوز حناجرهم).

ومن أجل قيمة الفهم، جاء تعريفُ الحكمة عن ابن عباس وفيه تحديد للأصول العلمية التي يتحقق بها الفهم الصحيح للإسلام، وفيه تعليل لذلك التحديد، بأن القرآن قد قرأه البر والفاجر وذلك قوله: (الحكمة هي المعرفة بالقرآن، ناسخه ومنسوخه، ومحكمه ومتشابهه، ومقدمه ومؤخره، وحلاله وحرامه، وأمثاله، -وفي رواية- وتفسيره، فإن القرآن قد قرأه البر والفاجر)[3]، وهذا معناه أن تحديد هذه الأصول أصبح أمراً ضرورياً، بسبب اختلاط الأفهام، ومعناه كذلك: أن اختلاط الأفهام يرجع مباشرة إلى تعرض من لم يصلوا إلى مرحلة البرِّ لتفسير النصوص.

(١) أخرجه الحكيم الترمذي في نوادره، والطبراني في الأوسط (١٨١) عن أبي هريرة، وحسنه الهيثمي في مجمع الزوائد (٩/٣٠٠)
(٢) روي عن أبي سعيد عند البخاري (٦/٣٧٦) ، ومن حديث جابر عند مسلم (١٠٦٣) وهي قطعة من حديث طويل .
(٣) سبق تخريجه في أول الكتاب .

حيث أن صفة البر في الإنسان أصل في فهم القرآن.

وقيمة الإنسان في فهم الإسلام ترجع إلى الإتفاق بين الحق في الإسلام والفطرة في الإنسان ودليل ذلك معروف، وهو قول الله : ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (الروم:٣٠) .

هذا من حيث التكوين الخلقي ..

أما المقياس المتمم لمقياس الفطرة في الإنسان لتحقيق الفهم الصحيح للإسلام، فهو مقياس الربانية وهذا من حيث التكوين الشخصي.

ومعناه أن يكون الإنسان بعقيدته وتفكيره وسلوكه مقياساً للحق، مثلما كان بفطرته من البداية .. والربانية هي استفاضة صفة العبودية لله عز وجل في واقع المسلم، بدليل قول رسول الله ﷺ – في الحديث القدسي – :(ما تقرب إلى عبدي بشيء أحب إليَّ مما افترضته عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، وقدمه التي يمشي بها) [١].

ومما لا شك فيه أن العبد عندما يصل إلى مرحلة أن يسمع بالله ويبصر بالله فإنه يقيناً سيكون دليلاً على الحق.

وقيمة الوصول إلى مرحلة الربانية في الفهم هي تفادي أثر التناقض أو المفارقة بين الحق الإسلامي، وبين التكوين الشخصي للإنسان، باعتبار أن التفكير العقلي أثر لهذا التكوين الشخصي.

وعندما يكون هذا التناقض، يحدث الخطأ في الفهم، إذ يصبح تفكير الإنسان من منطلق متناقض مع الإسلام.

فإذا كانت صفة الجبن مثلاً هي موضوع التناقض بين التكوين الشخصي والحق الإسلامي، فسيكون الاستدلال عند هذا الجبان .. متجها نحو إثبات صواب كل ما يتفادى به الخطر والمخاوف، وهكذا ..

ومن هنا تأتي قيمة الربانية بمعني التوافق بين التكوين الشخصي للإنسان، والحق في الإسلام، كما تأتي بمعني الحكمة.

ولهذا جاء في تفسير [٢] قول الله ﴿وَلَكِن كُونُواْ رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ (آل عمران :٧٩) .

قول ابن عباس : ربانيين أي حكماء علماء حلماء .

(١) البخاري في (١١/٣٤٠) عن أبي هريرة.

(٢) انظر تفسير ابن كثير للآية.

وقول سعيد بن جبير: ربانيين أي حكماء فقهاء.

وقول عبد الله بن مسعود: ربانيين أي حكماء أتقياء.

وواضح أن الحكمة هي القاسم المشترك في كل المعاني التي جاءت في تفسير معني الربانية. ولذلك يربط الإمام الشاطبي بين معنى الربانية والحكمة فيقول في كتاب الموافقات بعد كلام: (ويسمَّى صاحب هذه المرتبة الرباني والحكيم والراسخ والفقيه والعاقل).

وكذلك ارتباط معنى الربانية بمفهوم الدعوة، ارتباطاً واضحاً من النص القرآني: ﴿وَلَكِن كُونُواْ رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾(آل عمران :٧٩). والذي يفسره قول على بن أبي طالب: الربانيون هم الذين يغذون الناس بالحكمة ويربونهم عليها [١].

وقول ابن القيم:

(وجهاد النفس أربع مراتب :

١. أن يجاهدها على تعلم الهدى .

٢. أن يجاهدها على العمل بعد علمه.

٣. أن يجاهدها على الدعوة إليه وتعليمه من لا يعلمه.

٤. أن يجاهدها على الصبر على مشاق الدعوة وأذى الخلق ويتحمل ذلك كله لله فإذا استكمل هذه المراتب الأربع صار من الربانيين ، فان السلف مجمعون على أن العالم لا يستحق أن يسمَّى (ربانياً) حتى يعرف الحق ويعمل به ويعلمه ويدعو إليه، فمن علم وعمل فذاك يسمَّى عظيماً في ملكوت السموات).

وبعد تقرير قيمة الربانية أو الحكمة في فهم الإسلام يبدأ تحديد منهج الوصول بالمسلم إلى تلك المرحلة ، وهو منهج التربية.

* * *

(١) الرسائل الكبرى للإمام ابن تيمية.

منهج التربية:

ومنهج تربية الدعاة هو التوجيهات المرتبطة بمرحلة الإعداد لأصحاب الدعوة.

ويتحدد من ناحيتين:

ناحية علمية: وهي أن أحكام هذا المنهج مرتبطة بالأحكام التي بدأت بها الدعوة، باعتبار أن مرحلة الإعداد هي البداية الطبيعية للدعوة، كما كانت في عهد رسول الله ﷺ.

وناحية شرعية: وهي أن أحكام هذا المنهج نوافل وليست فرائض، إذ أن الفرائض تكليف عام لا يجوز فيه تخصيص مسلم داعية في مرحلة إعداد، دون غيره من المسلمين.

وكون أحكام هذا المنهج ليست فرائض، فإن لذلك قيمة تربوية، وهي تحقق الرغبة الذاتية في الطاعة التي لا تقف عند حد التكاليف الشرعية المفروضة، وهذا أمر مفترض في الدعاة.

كما أن النوافل هي السبب الشرعي الذي يتحقق به حب الله للعبد. بدليل قول رسول الله ﷺ في الحديث القدسي عن الله عز وجل: (ما تقرب إلى عبدي بشيء أحب إليَّ مما افترضته عليه، ولا يزال يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه ..).

وفي حديث آخر: (إذا أحب الله عبداً نادى جبريل: أن يا جبريل! إن الله يحب فلانا فأحبه، فيحبه جبريل، ثم ينادي جبريل أهل السماء: يا أهل السماء! إن الله يحب فلانا فأحبوه، فيحبه أهل السماء، ثم ينادي أهل السماء: يا أهل الأرض! إن الله يحب فلانا فأحبوه، فيحبوه، ثم يوضع له القبول في الأرض)[1]. وهذا أهم ما يتحقق لصاحب الدعوة .. وهو أن يكون القبول موضوعاً له في الأرض، لأن هذا يعني أن يتحقق القبول لدعوته كذلك.

وتبدأ أحكام منهج التربية، كما بدأت في عهد رسول الله ﷺ.

أولاً: التهجد: وهو من أول ما أمر الله به نبينا عليه الصلاة والسلام بقوله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ . قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً . نِصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً . أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً﴾ (المزمل:١ـ ٤).

وفيه تكوين عدة عناصر:

الإخلاص: وهو أن يبتغي الداعية بدعوته وجه الله سبحانه وتعالي، والممارسة العلمية التي تنشئ الإخلاص في نفس المسلم هو أن يعمل عملاً لا يراه فيه أحد من البشر، وكلما كان هذا العمل الخفي فيه جهد كلما كان أكثر حماية من الرياء وتثبيتاً للإخلاص، إذ أن الرياء أقرب إلى الإنسان في العمل الخفي المجهد.

التميز: وهو ضرورة شخصية للداعية، لأن الشعور بالتميز هو الذي يعطي من تفرد وتميز بالعزم والقوة.

(١) البخاري مختصراً (١١/٣٤٠) ومسلم (٢٦٣٧) عن أبي هريرة.

والتهجد مصدر أساسي لهذا الشعور حيث أن هذه الصلاة لا يقوي عليها إلا من تفرد وتميز بالعزم والقوة.

وكما أن التهجد شعور بالتميز فهو في نفس الوقت حماية من الغرور لأنه تميز من خلال عبادة الله عز وجل.

وقد قصد النبي ﷺ أن يؤكد شعور التميز من خلال صلاة العشاء فأخرها إلى أن قال عمر: يا رسول الله ! نامت النساء ونامت الأولاد، فقال رسول الله: (أبشروا، إنه لا يصلي في هذا الوقت على وجه الأرض أحد غيركم)[1].

فوضح أن تميز الصحابة بالصلاة في وقت لا يصلي فيه أحد غيرهم، كان هدف رسول الله ﷺ من تأخير الصلاة.

وصلاة التهجد بوقتها من الليل تحقيق لهذا الهدف.

الإرادة: وهي نوعان في الإنسان ..

إرادة البدء:

وشواهد هذا النوع أنك قد تجد صعوبة في أن تجعل إنساناً يبدأ عملاً، ولكنه بمجرد أن يبدأ يسهل استمراره.

وإرادة الاستمرار:

وشواهد هذا النوع أنك لا تجد صعوبة في أن تجعل إنساناً يبدأ عملاً، ولكنه بمجرد أن يبدأ، لا يلبث أن يتوقف.

وصلاة التهجد معالجة لنوعي الإرادة: البدء والاستمرار، وهذه المعالجة تتم من خلال كيفيتين ثابتتين لها عن رسول الله ﷺ.

كيفية لمعالجة **إرادة البدء** وهي الواردة عن ابن عباس: (كان رسول الله ﷺ يصلي ركعتين ثم ركعتين ثم ركعتين ثم ركعتين ثم ركعة)[2].

حيث نجد في هذه الكيفية ست بدايات يتم من خلالها تربية الداعية على إرادة البدء.

وكيفية لمعالجة **إرادة الاستمرار** وهي الواردة عن عائشة : (كان رسول الله ﷺ يصلي أربعاً لا تسل عن حسنهن وطولهن ، ثم أربعاً لا تسل عن حسنهن وطولهن ، ثم يصلي ثلاثاً)[3].

حيث نجد في هذه الكيفية طول الصلاة ليتم من خلالها تربية الداعية على إرادة الاستمرار.

---

(١) البخاري (٢/٤٩) ومسلم (٦٣٨) عن عائشة.

(٢) البخاري (١/ ٢٨٧) ومسلم (٧٦٣) عن ابن عباس.

(٣) البخاري (٣/٣٣) ومسلم (٧٣٨) عن عائشة.

الاتزان النفسي:

والتهجد يحقق في الداعية صفة الاتزان النفسي في ظروف الاستضعاف التي قد تفقد الداعية تلك الصفة، لأن الاستضعاف شعور بالضعف وقلة حيلة وهوان على الناس ..

وهي أمور قد تحيط بالمستضعف فتدفعه إلى محاولة الإفلات من هذا الشعور، والتخلص من هذا الحال، فلا يتحرك بمقتضيات المرحلة، بل يتصرف برغبة الإفلات والتخلص.

ولذلك كانت الصلاة هي التوجيه الأساسي لتحقيق صفة الاتزان، لأن الصلاة هي التي تصب في كل كيان المستضعف، الإحساس بذاته ومكانته في هذا الوجود، فتتم معالجة الآثار الناشئة عن حال الاستضعاف، وذلك في قول الله عز وجل: ﴿كُفُّواْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ﴾(النساء: ٧٧).

ثانياً: الصيام:

ويشترك مع التهجد في معالجة الإرادة ولكن من حيث الأصل.

إذ أن أصل الإرادة في الإنسان هي إرادة الامتناع، بدليل أن تجربة الإرادة والعزم التي خاضها آدم في الجنة كانت إرادة امتناع:

﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلاَ مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَـذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الْظَّالِمِينَ﴾(البقرة:٣٥).

وإرادة الامتناع في الإنسان إرادة مطلقة ولهذا تقوم الأحكام الشرعية على أن يكون (الأمر) بقدر الاستطاعة أما (النهي) فهو مطلق في وجوب الانتهاء عنه.

بدليل قول رسول الله ﷺ: (ما أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم، وما نهيتكم عن شيء فاجتنبوه)[1].

وبهذا يصير الامتناع (النهي) مقياساً مطلقاً للإرادة غير (الأمر) المقيد بحد الاستطاعة.

ثالثاً: الإنفاق:

وضرورته في تكوين الداعية، هي حمايته من صفة البخل، وكسبه لصفة الكرم، حيث يتحقق له من خلال ذلك حمايته من صفة الجبن، وكسبه لصفة الشجاعة.

وذلك لأن الجبن والبخل صفتان متلازمتان في الطبع الإنساني، وكذلك صفة الشجاعة والكرم، بدليل قول رسول الله ﷺ: (اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن، والعجز والكسل، والجبن والبخل، وغلبة الدين وقهر الرجال)[2].

(١) البخاري (١٣/٢٥١) ومسلم (١٣٣٧) عن أبي هريرة .
(٢) البخاري عن أنس (١١/١٧٨) ومسلم (٢٧٠٦) .

رابعاً: الذكر:

ويحقق في التكوين الشخصي للداعية عدة عناصر:

إكبار الله عز وجل .. وهو توجيه مهم لصاحب الدعوة في مواجهته للجاهلية بضخامتها وإمكانيتها ، ولهذا كان من التوجيهات الأولية لرسول الله ﷺ بقوله تعالي : ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ . قُمْ فَأَنذِرْ . وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ (المدثر :١ـ ٣)

ـ الانشغال بالله .. وهو من أهم مقتضيات الدعوة إذ أن الداعية الصادق هو الذي يعيش بدعوته كل لحظات حياته .. وذكر الله باعتبار كثرته وإطلاقه من التوقيت المحدد: ﴿وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيراً وَالذَّاكِرَاتِ﴾ (الأحزاب:٣٥) فإنه يحقق الانشغال بالدعوة من خلال الانشغال بالله عز وجل.

ـ الاطمئنان القلبي .. وهو ضرورة لمواجهة الشدائد التي تنتظر كل داعية في طريقه: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ (الرعد:٢٨).

ـ وفي الذكر حماية للداعية من الآثار الذهنية المترتبة على الشعور بالتناقض، بين التصور الذي يعيش في ذهن المسلم، وبين الواقع الجاهلي الذي يعيش فيه المسلم.

والإنسان بطبيعته يحاول التخفيف من وطأة التناقض بين تصوره وواقعة بخيال ذهني يترتب عليه أكبر ضرر يقع على عقله.

والذكر باعتباره استيعاب للطاقة الذهنية بصورة شرعية صحيحة، فإنه يحمي هذه الطاقة من أن تبدد في خيال يبعد عن الواقع، ويضعف التفكير ويقلق النفس ويجمد الحركة.

وبالالتزام بمنهج التربية، وتحقيق صفة الربانية، يكون المسلم الحكيم .. وتنشأ دلائل الحكمة في أسلوب الدعوة من خلال سلوك الدعاة، وتصرفاتهم السليمة، ومواقفهم الصحيحة.

وأبرز هذه الدلائل: هي أن يصبح المسلم الحكيم بذاته دليلاً على الحق. مثل عمر الذي وافقه الله سبحانه وتعالى على رأيه، إذ يقول : (وافقت ربي ـ أو وافقني ربي ـ في ثلاث: في الحجاب، وتحريم الخمر، وأسرى بدر)[١].

وبلغ عمر حد النصح لرسول الله ﷺ، وقبل رسول الله ﷺ نصيحته، وذلك عندما رأى أبا هريرة يقول: من قال لا إله إلا الله دخل الجنة. فيضربه في صدره، ويذهب به لرسول الله ﷺ ، فيجد أن رسول الله هو الذي أمره بذلك، فيقول في أدب: يا رسول الله ! إذن يتكلوا، فيستجب الرسول ﷺ لنصحه ويقول إذن يتكلوا .. ومنع أبا هريرة من أن يقول الكلمة [٢].

ومثلما حدث من سعد بن معاذ عندما حكمه رسول الله ﷺ في يهود بني قريظة بعدما غدروا

(١) البخاري في المناقب (٨/١٦٨) ومسلم رقم (٢٣٩٩) عن عمر موقوفاً.
(٢) البخاري في الإيمان ومسلم (٣١) في الإيمان أيضاً عن أبي هريرة رضي الله عنه.

في غزوة الأحزاب. فقال : تقتل مقاتليهم وتسبي زرايهم ، فقال له رسول الله ﷺ: (حكمت بحكم الله فوق من فوق سبع سموات)[١] .

ومن دلائل الحكمة: أن يستطيع المسلم الحكيم تجريد النص من الخطأ في الفهم أو التحريف في الكلم.

مثلما قال على بن أبي طالب في الخوارج، عندما رفعوا المصاحف على أسنة الرماح وقالوا: نريد حكم الله، فقال: (كلمة حق يراد بها باطل)[٢].

ومن دلائل الحكمة صفة التلقائية في الفهم. مثلما حدث من أبي ثمامة عندما بايع رسول الله ﷺ على الإسلام [٣]، فذهب إلى قومه وقال: لقد أسلمت .. ولن تأخذوا حبة قمح حتى يأذن لكم فيها رسول الله ﷺ . فأدرك بإسلامه أن هذا يعني الولاء، وأن الولاء يقتضي أن لا يتصرف في أمور حياته حتى لو كانت حبة قمح، حتى يأذن في ذلك من أعطاه ولاءه .

ومن دلائل الحكمة: ذاتية التصرف، مثلما حدث من أبي بصير الذي أعاده رسول الله ﷺ إلى أهل مكة بعد معاهدة الحديبية التي نصت على أن يرجع رسول الله ﷺ كل مسلم يأتي إليه من قريش. فأصبح مسلماً ليس له صلة بقيادته، ولا تملك له قيادته أي توجيه، فيتصرف تصرفه الذاتي الصحيح، الذي كان سبباً مباشراً لإلغاء نص إرجاع المسلمين إلى قريش في المعاهدة.

يقتل من كان معه من مشركي قريش في طريق الرجوع بعد أن يخدعهم ..

ويحتل موقعاً بين مكة والمدينة، ويقطع على قريش طريقها، فيسمع به رسول الله ﷺ فيقول: (مسعر حرب لو كان معه رجال)[٤] فيسمع بقول رسول الله كل من أسلم من قريش فيذهب إليه، ويشترك معه، وتقوم حرب [٥] تبعث بعدها قريش إلى رسول الله ترجوه أن يمنعهم وتطلب بنفسها إلغاء ما اشترطته في المعاهدة.

أما دلائل الحكمة من الناحية الأخلاقية فقد ورد فيها عدة نصوص منها:

قول رسول الله ﷺ : (أتاكم أهل اليمن .. هم أرق أفئدة وألين قلوبا) [٦] فصارت رقة الفؤاد ولين القلب هي المرجع الأخلاقي للإنسان الحكيم.

وقولهم: الحكمة هي: (ضبط النفس والطبع على هيجان الغضب)[٧] .

(١) البخاري (٧/٤١١) ومسلم رقم (١٧٦٨) عن أبي سعيد.
(٢) مسلم رقم (١٠٦٦) موقوفاً على علي رضى الله عنه.
(٣) راجع قصته من سيرة ابن هشام (٤/١٦٢).
(٤) قطعه من حديث طويل أخرجه البخاري (٥/٣٢٩).
(٥) تماثل في أسلوبها ما يطلق عليه الآن حرب العصابات.
(٦) سبق تخريجه.
(٧) تاج العروس للزبيدي.

وقولهم: (الحكمة هي التواضع).

حيث سيكون المسلم الحكيم برقة القلب ولين الفؤاد متجهاً نحو تحقيق غايته بروح المسالمة والمصالحة ..

وسيكون بضبط النفس والبعد عن الغضب في حماية من أي تفكير انفعالي أو قرار انتقامي أو أسلوب أهوج ..

أما صفة التواضع فهي أهم الصفات الأخلاقية التي سنخرج بها من مرحلة الفتنة، حيث أنها صفة الباحث عن الحق.

وذلك لقول رسول الله ﷺ: (الكبر هو بطر الحق، وغمط الناس)[1] والكبر هو الصفة المقابلة للتواضع، ولذا لزم التركيز على هذا الخلق في تحديد دلائل الحكمة.

ومن هنا كان الربط بين التواضع والحكمة في قول الله عز وجل: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا . كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا . ذَٰلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾ (الإسراء:٣٧ ـ ٣٩).

وكما قررنا في تحديد معني الربانية أن أي مفارقة أو تناقض بين الإنسان وطبيعة المنهج تنشئ (الخطأ) في الفهم، نقرر أن أي مفارقة أو تناقض بين العلاقات الإنسانية في مجال الدعوة هي التي تنشئ (الخلاف).

و لما كان التواضع هو الشعور الشرعي عند المسلم بذاته وبغيره من المسلمين، أصبح يمثل الأساس الأول في مهمة إنشاء العلاقة الفكرية الصحيحة في مجال الدعوة.

وإذا كانت كل صفات الحكمة تحقق في النهاية صفة التواضع، فإن ما يحفظها بعد تحقيقها عدة وصايا أهمها:

كراهية المدح وفيه جاء قول رسول الله ﷺ: (احثوا في وجوه المداحين التراب)[2] حتى لا يكون للمادح أي تكريم أو تقدير في نفس من يسمع المداح ، لأنه بمقدار تكريم المادح يكون نقص من يسمع مدحه.

وقد جاء في باب ما يكره من التمادح عن رسول الله ﷺ أنه قال لرجل يمدح أخاه: (ويحك ، قطعت عنق صاحبك)[3] .

ولقد كره رسول الله ﷺ أدني تجاوز للشعور بالنفس حتى أنه عندما سمع رجلاً يطرق الباب

(١) مسلم في الإيمان رقم (٩١) عن ابن مسعود.
(٢) مسلم رقم (٣٠٠٢) من حديث ابن عمر.
(٣) البخاري (٥/٢٧٤) ومسلم رقم (٣٠٠٠) عن أبى بكرة.

فقيل له من ؟ فقال: أنا، فعرف الغضب في وجه رسول الله، وقال: (أنا .. أنا !)[١].

فأصبح من صفة التواضع أن الإنسان يعرف الناس بنفسه، ولا يفترض أن أحداً يعرفه دون أن يعرف هو بنفسه.

وحب التميز في الإنسان هو المدخل إلى الكبر، ومعالجة هذا الخطر تتحقق بتوجيه حب التميز إلى الآخرة، ودليل ذلك هو قول رسول الله ﷺ: (من قال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، يحيي ويميت، وهو على كل شيء قدير .. في اليوم مائة مرة كانت له حرزاً من الشيطان، ولم يأت أحد يوم القيامة مثله إلا رجل زاد عليه)[٢].

كما تتحقق الحماية من حب التميز، بأن تقرن الأمور التي يرى فيها الإنسان تميزاً بمسئولية ذلك التميز، مثل ميزة الإمارة التي قال فيها رسول الله عليه وسلم: (إنكم ستحرصون على الإمارة، وستكون ندامة يوم القيامة، فنعم المرضعة وبئست الفاطمة)[٣].

وقال: (إنها أمانة، وإنها يوم القيامة خزي وندامة، إلا من أخذها بحقها، وأدى الذي عليه فيها)[٤].

ولذا كان من أساليب التربية ذكر المسئولية التي تقع على المسلم إذا كان هناك اضطرار لذكر ميزته، مثلما حدث من الراهب مع الغلام في قصة أصحاب الأخدود عندما قال له: (أي بني ! قد أصبحت أفضل مني ؟ فقال له بعدها: وإنك ستبتلى)[٥].

* * *

(١) البخاري (١١/٣٥) ومسلم (٢١٥٥) من حديث جابر.
(٢) البخاري (١٣/١٢٥) ومسلم (٢٦٩١) عن أبي هريرة.
(٣) البخاري (١٣/٢٥) عن أبي هريرة.
(٤) ومسلم (١٨٢٥) في الإمارة عن أبي ذر.
(٥) مسلم (٣٠٠٥) عن صهيب.
وبجانب قاعدة ذكر الميزة، نذكر ما يقابلها وهي قاعدة النقد، وفيها يجب عند ذكر الخطأ أن نذكر قيمة الإنسان المخطئ، حتى لا يكون في ذكر الخطأ أو التقصير فقدان لثقته بنفسه، مثلما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في عبد الله بن عمر: (نعم العبد عبد الله .. لو كان يقوم من الليل) البخاري (٧/٨٩) ومسلم (٢٤٧٩) وبذلك لا يكون ذكر الميزة سبباً للغرور بالنفس ولا يكون ذكر الخطأ سبباً لفقدان الثقة بالنفس.

وبنفس المنطق يأتي الحديث الذي رواه البخاري (كاد الخيّران يهلكا) : أبو بكر وعمر رضى الله عنهما رفعا أصواتهما عند النبي ﷺ فنلاحظ وصفهما (الخيران) قبل ذكر (أن يهلكا).

الفصل الخامس

ضـرورتـان !

بعد أن بدأنا إنشاء الواقع الصحيح للدعوة بتكوين الجماعة المسلمة، وإحكام الفكر، وتكوين الفرد المفكر، يبقى أمران ضروريان لتمام مهمة إنشاء هذا الواقع ..

الأمر الأول: تحديد علاقة هذه الجماعة المسلمة بالواقع التاريخي للدعوة ..

وهذا التحديد شرط عملي هام لكي تكون هذه الجماعة امتداداً صحيحاً للواقع التاريخي للدعوة، وذلك بأن تجتمع فيها كل تجارب الدعوة السابقة، وهذا ما يتحقق بربط الجماعة القائمة، بالواقع التاريخي برباط التجربة.

وفي ذلك تحقيق لأهم مقتضيات الحكمة، حيث جاء في تعريف الحكمة علاقتها بالتجربة لقول رسول الله ﷺ: (لا حليم إلا ذو عثرة .. ولا حكيم إلا ذو تجربة)[1] ولقولهم في تعريف الحكمة: (رجل حكيم أي رجل أحكمته التجارب).

والأخذ بالتجربة من أهم ضرورات المواجهة مع الجاهلية، لسبب عملي واضح، وهو أن الجاهلية تجربة واحدة، بدأها إبليس بمعصيته واستكباره، وسيظل قائماً عليها إلى يوم البعث.

وهذا معناه أن الجاهلية تاريخ واحد، وأن المواجهة من جانبها للإسلام قائمة بخبرة تاريخية كاملة، ولنا أن نتصور بتلك القاعدة مدى التطور الجاهلي في المواجهة، عندما يكون العامل الزمني الذي تتطور به، هو هذا التاريخ القديم المستمر.

والمواجهة الإسلامية للجاهلية وهي تجربة تاريخية واحدة بتجارب مبتورة معناه فقد اكبر إمكانيات القدرة الإسلامية في تلك المواجهة.

ولهذا تم لقاء مباشر بين موسى رسول بني إسرائيل وبين رسولنا عليهما الصلاة والسلام ليلة الإسراء والمعراج في السماء.

واستجاب نبينا عليه الصلاة والسلام لنصيحة أخيه موسى ..

واستجاب الله عز وجل لسؤال نبينا ﷺ بالتخفيف وأصبحت الصلاة خمساً بعد خمسين [2].

غير أن الاستفادة الحقيقية من تجارب الدعوة السابقة رهن بالتقييم الصحيح لها فكراً وتطبيقاً.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) البخاري في قصص الإسراء (١/٤٥٨) ومسلم (١٦٣) عن أبي ذر.

فمن ناحية الفكر والمنهج ..

يتم التقييم على أساس الالتزام بالكتاب والسنة والفهم السلفي لهما.

ومن ناحية التطبيق والواقع ..

فإن التقييم يتم على أساس بلوغ حد الاستطاعة مادياً وتنظيمياً، لتحقيق الهدف المحدد للتجربة.

أما التقييم الخاطئ للتجربة، فهو الذي يبتعد عن جوهرها الشرعي والحركي، فيفقدها أثرها في واقع الدعوة، حيث يصير التقييم -بالابتعاد عن جوهر التجربة- مجرد كلام نظري لا يتجاوز ناحيتها الشكلية أو نتائجها المادية.

وبناء على التقييم الإيماني الصحيح، فإن هناك تجارب إسلامية عظيمة، وإن لم يكن لها نتائج مادية في الواقع، ولكنها أخذت تلك الصفة لتحقق المستوي الإيماني الكامل فيها.

وهؤلاء هم أصحاب الشجرة يبايعون النبي ﷺ على القتال بصدق، فيرضى الله عنهم دون أن يقاتلوا: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ (الفتح:١٨).

وإذا كان من الطبيعي أن يكون لكل تجربة خطؤها، فإن التقييم الصحيح هو الحد الفاصل بين الخوف من الخطأ الذي يجعلنا نبذل أقصى الجهد لتحقيق صواب العمل، وبين الخوف الذي يترتب عليه توقف العمل.

وبذلك فإن التقييم الصحيح للتجربة هو الذي يضع المسلم في سبيل ميسر للعمل الصحيح، بعد أن ينفض عنه غبار الخطأ، ويعيد إليه دافع الاستمرار، مردوداً بتجربة ماضية ليخوض بها تجربة مقبلة.

وإذا كان من الطبيعي ـ كذلك ـ أن يكون لكل تجربة خطؤها، فإن التقييم الصحيح هو الذي يرتفع بحقيقة الأخوة مرهونة بصواب أو مفقودة بخطأ، طالما أن قيام التجربة كان في حدود الإيمان الصحيح، ويسعنا في ذلك قول الله عز وجل: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (الحشر:١٠).

وتقييم التجارب الإسلامية السابقة علينا ليست مجرد إضافة خبرة أو زيادة معرفة، ولكنها اعتراف للخير من أصله، لأن أي تجربة حدثت في مجال الدعوة، هي أحداث سبقنا بها دعاة نحن نليهم في استمرار الدعوة.

والخير على مستوى تاريخ هذه الأمة مرتبط بصفة السبق الزمني، بدليل قول رسول الله ﷺ: (خير الناس قرني ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم)[1].

(١) البخاري (٥/٢٥٨) ومسلم (٢٥٣٥).

وصفة السبق الزمني هي التي تعطي للأحداث صفة التجربة.

وهذه مقارنة قرآنية بين فترة ما قبل الفتح وما بعده من خلال الإنفاق والقتال وذلك في قول الله سبحانه: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُوْلَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلاًّ وَعَدَ اللّهُ الْحُسْنَى وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (الحديد:١٠) .

وما سبق يحدد قيمة التجربة على المستوى التاريخي للدعوة.

يبدأ بعده تحديد قيمة التجربة على المستوى الفردي، وأثر التجربة في الداعية بصفة شخصية من خلال عدة نقاط.

أولاً: أن التجربة أساس للتربية: ولذلك رعى كل الأنبياء الغنم، قبل ممارسة الدعوة ليتزودوا من خلال تجربة الرعي بصفة السكينة والوقار.

ولعلنا ندرك قيمة الإنسان وخطورة التعامل معه في مجال الدعوة بدون تجربة، من خلال تزود الأنبياء بتجربة رعي الغنم قبل التعامل مع البشر.

ثانياً: أن التجربة مصدر للثقة، ولذلك جعل الله موسى يخوض تجربة العصا عندما تصير حية في الوادي المقدس قبل أن يذهب إلى فرعون:

﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى . قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى . قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى . فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى﴾ (طه:١٧ ـ ٢٠).

ورغم أن موسى ذهب إلى فرعون مزوداً بتلك التجربة، فإنه في موقف المواجهة أوجس في نفسه خيفة، فما بالنا لو ذهب بغير تلك التجربة ؟!.

ثالثاً: أن التجربة ضرورة لليقين: لأن التجربة واليقين يلتقيان في الواقع، إذ أن الواقع هو مجال التجربة ومصدر اليقين، ولذلك كانت رؤية زكريا لمريم في تجربة ملموسة للرزق بغير حساب، هي مصدر يقينه بإمكانية أن يرزق الولد بعد أن اشتعل رأسه شيباً:

﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقاً قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللّهِ إِنَّ اللّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاء بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٧) هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاء﴾ (آل عمران:٣٧،٣٨) .

رابعاً: أن التجربة ضمان للصواب: ولذلك يعلمنا النبي ﷺ الحذر من معاودة الخطأ إذا حدث، بالاستفادة من أي تجربة خاطئة فيقول: (لا يلدغ المؤمن من جحر واحد مرتين)[1].

(١) البخاري (١٠/٥٢٩) ومسلم (٢٩٩٨) عن أبي هريرة.

الأمر الثاني: العلاقة بين الجماعة المسلمة والمجتمع الجاهلي:

بمجرد قيام الجماعة المسلمة، تنشأ مشكلة العلاقة بين تلك الجماعة والمجتمع الجاهلي الذي نشأت فيه، وهذه المشكلة مرتبطة في منهج الدعوة بثلاث قضايا:

أولاً: قضية وجود المسلم في المجتمع الجاهلي:

والأصل في هذه القضية هو النتيجة العملية لهذا الوجود وليس الوجود ذاته ..

فإذا غلب على هذا الوجود معنى الإقرار للجاهلية كان خطأ ..

وإذا غلب على هذا الوجود معنى الإنكار على الجاهلية كان صواباً ..

وتنتفي صفة الإقرار عن وجود المسلم للجاهلية بالاستضعاف، وتثبت له صفة الإنكار بالانتماء إلى الجماعة المسلمة واعطائها الولاء .. وهذا من حيث الموقف.

كما تثبت له صفة الإنكار بممارسة الدعوة، وما تقتضيه من إنكار لأي منكر، وبراءة من كل باطل .. وهذا من حيث السلوك.

وثبوت الإنكار على الجاهلية بالانتماء للجماعة وممارسة الدعوة، هو الأصل في الإنكار، أما الاعتزال فهو تصرف اضطراري، يثبت الإنكار بعد اليأس من الاستجابة للدعوة.

إذ لو كان الاعتزال هو الأصل في معني الإنكار لتقرر على المسلم بمجرد دخوله الإسلام، وانتفى معنى الدعوة، والتحديد العملي لضرورة الاعتزال يؤكد أن الاعتزال أصلاً إنما يكون للمنكَر وليس للناس في ذاتهم، إذ أن الناس هم موضع الدعوة، بدليل قول الله عز وجل: ﴿أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ (النساء:١٤٠).

والأمر بالاعتزال كما هو واضح من الآية، معلق بحال الاستهزاء بالآيات، وبمجرد انتهاء حال الاستهزاء، يكون القعود للدعوة.

ويظل اعتزال الناس معلق بحال المنكر الفعلي، إلى أن يثبت على هؤلاء الناس استحالة مفارقتهم للمنكر، فتصبح حياتهم بصفة دائمة، مثل حال وقوعهم في المنكر الذي يجب اعتزالهم فيها، فيتقرر الاعتزال بصفة دائمة.

وتأتي كل آيات الاعتزال لتثبت أن الاعتزال إنما يكون باعتبار ما عليه الناس من منكر وليس للناس أصلاً ..

﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ ... ﴾ (مريم:٤٨).

﴿وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلاَّ اللَّهَ ... ﴾ (الكهف:١٦).

ثانياً : قضية تقييم المسلم للمجتمع الجاهلي:

وقيام الجماعة المسلمة يفرض على المسلم تقييم هذا الواقع الذي قامت فيه، لأن التصور الذي لا يصل بصاحبه إلى حد تقييم الواقع، لا يصل إلى حد الكمال والصواب.

وتقييم الجماعة المسلمة للواقع الجاهلي له أساسان:

ـ أساس عقيدي .. يقوم به وجود الجماعة في هذا الواقع.

ـ أساس حركي .. تتم به مواجهة الجماعة لهذا الواقع.

أما عن التقييم العقيدي، فإنه يعد من أبعاد التصور الإعتقادي الذي قامت به الجماعة، وهؤلاء هم فتية الكهف يقول الله فيهم: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى . وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَ مِن دُونِهِ إِلَهًا لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا ١٤ هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ (الكهف:١٣ ـ ١٥).

وواضح من النص أن إعلان عقيدتهم بقولهم: ﴿رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ تبعه تلقائياً: ﴿هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً﴾ وهو تقييم لواقع قومهم بمقتضى تصورهم، وقيمة تقييم الواقع الجاهلي لا تنتهي عند اعتبارها شرطاً لصحة الاعتقاد الإسلامي، ولكنها كذلك تكليف شرعي كلفنا الله به باعتبارنا شهداءه سبحانه في الأرض، بدليل قوله عز وجل: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ (البقرة:١٤٣) وقول رسول الله ﷺ: (أنتم شهداء الله في الأرض)[1].

وإذا كان الإحكام أساس لمعنى الحكمة، فإن ذلك يقتضي ألا تطغى مهمة الشهادة أو الحكم على الناس على مهمة دعوتهم وغاية هدايتهم، كما يقتضي عدم تجاهل مهمة التقييم والحكم والشهادة في واقع دعوتنا لهؤلاء الناس.

وبذلك يتقرر بمقتضى الحكمة أن نكون (دعاة وشهداء) في إحكام بين المهتمين.

وأما عن التقييم الحركي، فمن خلاله يتحدد أسلوب المواجهة المباشرة مع الجاهلية.

فالدعوة الإسلامية لا تتحرك في فراغ ..

والجاهلية ليست وضعاً ساكناً، ولكنه وضع يملك كل خصائص الحركة وإمكانيتها ..

والعلاقة بين الإسلام والجاهلية يرسمها خط مشتعل .. للتضاد الحركي بينهما.

فالجاهلية دعوة ..

بدليل قول الله: ﴿أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُوَ إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ﴾ (البقرة:٢٢١) وقول الله: ﴿وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ . تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ

(١) البخاري (٣/٢٨٨) ومسلم (٩٤٩٩ من حديث أنس .

بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ﴾(غافر:٤١،٤٢).

والجاهلية تأثير وتأثر ..

﴿هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا﴾(القصص:٦٣) وهكذا يكون الاستمرار.

والجاهلية التزام وتمسك ..

﴿قَالُواْ يَا شُعَيْبُ أَصَلاَتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاء﴾ (هود:٨٧)، فأصحاب الجاهلية يعتقدون أنه لا حق لهم في التصرف في أموالهم كما يشاءون، فهناك النظام الذي يجب اتباعه .. !

والجاهلية إصرار ومفاصلة ..

﴿وَلاَ يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىَ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُواْ﴾(البقرة:٢١٧)،

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾(إبراهيم:١٣).

والجاهلية حركة ..

لقول الله: ﴿أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ﴾(ص :٦)، ﴿وَلاَ يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾(آل عمران:١٧٦)، ﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الفَسَادَ﴾(البقرة:٢٠٥).

والجاهلية قتال وانفاق ..

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ﴾(النساء:٧٦)، ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ اللّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾(الأنفال:٣٦).

تلك هي خصائص الجاهلية التي تسيطر بها على الإنسان ..

وهذه قريش تشترط على رسول الله ﷺ أن يعيد إليها كل من أسلم، حتى جاء أبو جندل مسلماً، فأعاده المسلمون التزاما بالمعاهدة، فيأخذه المشركون مقيداً بالحديد.

وتبعث في أثر المسلمين الذين هاجروا إلى الحبشة لتعيدهم إليها، ويقدمون الهدايا إلى قساوسة النجاشي ملك الحبشة من أجل ادعاتهم.

وتزاحم قريش النبي ﷺ في مواسم الحج لتقاوم دعوته بعد أن رأته يدعو الناس.

وهذا أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة يسبقان النبي ﷺ إلى عمه في لحظات موته، فيحاول النبي ﷺ أن ينطقه الشهادتين فتنشأ لحظات الصراع في لحظات الموت من أجل التأثير على أبي طالب. فيقول النبي ﷺ: (يا عم قل: لا إله إلا الله أشهد لك بها عند الله) فيقول أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية: يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب ؟ قال أبو طالب آخر ما كلمهم: هو على ملة عبد المطلب ..[1]

(١) البخاري (٣/٢٢) ومسلم رقم (٢٤) عن المسيب بن حزن.

وهذا حاكم [1] كافر يبعث رسالة إلى فرد مسلم قاطعته الجماعة لأجل خطأ وقع فيه ، فيقول له فيها : لقد علمنا أن صاحبك قد جفاك .. ما جعلك الله في دار هوان فأت إلينا نكرمك !![2]

سبحان الله .. حاكم دولة كافر، يطلب فرداً مسلماً في توقيت خطير، ليؤثر عليه ويفتنه ..

صراع على الإنسان .. مزاحمة في المكان ..

وملاحقة في الطرق .. ومطاردة في الأرض ..

تربص وترصد .. مراقبة وتتبع ..

هذه بعض ملامح الصراع التي لا تزال قائمة .. بل تزداد !.

ولعل هذه الملامح تكون واضحة لأصحاب فكرة التربية النظرية الهادئة ..!

هؤلاء الذين يتخيلون توقف الحركة الجاهلية .. ويطفئون في إحساسهم اشتعال الصراع، ويفترضون أن الجاهلية ستتركهم يربون جيلاً إسلامياً، وينشئون تجمعاً قوياً !.

ولعل الخطأ الأساسي عند أصحاب هذا الفهم، هو الظن بأن الصراع بين الجاهلية والإسلام يرجع إلى التوقع الجاهلي بأن الإسلام يريد السيطرة، فيتخيلون أن الابتعاد عن محاولة الوصول للسلطة، هو الذي سيعطي للمسلمين فرصة الوجود، وكمعالجة لهذا الإحساس الجاهلي. فإنهم يبدأون التجمع بعيداً عن قضية الجهاد، مرتكزين في منهجيتهم على التربية الفردية والتبليغ بالكلمة.

وهذا الظن خاطئ ؛ لأن الصراع بين الجاهلية والإسلام يرجع إلى رفض الإسلام ذاته، حتى لو تمثل في صورة فردية مجردة من أي قوة.

والقرآن يبين أن الرفض الجاهلي للوجود الإسلامي سيكون في غاية القسوة حتى لو كان هذا الوجود في أبسط صورة، فيقول الله عز وجل: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ (الجن:١٩) والصورة المرفوضة هنا هي أن عبد الله .. قام يدعو الله ..!

وهذا يعني أن المواجهة مفروضة على المسلم .. بمجرد إسلامه.

ويعني كذلك رفض أي مساومة جاهلية على المواجهة الكاملة، بوجود مجرد من هدف الوصول للسلطة، قد تسمح به الجاهلية بصفة مرحلية، لتضمن عدم المواجهة، ثم تتمكن بعد ذلك من إنهاء هذا الوجود، لأن الجاهلية تعلم يقيناً أن هذا الوجود المسموح به مرحلياً، ليس له أي قيمة إسلامية، بل إنه إضافة جديدة للتمكين الجاهلي، حيث يبرز هذا الوجود الخاضع ابتداء حجم التسلط الجاهلي.

---

(١) ملك دولة غسان.

(٢) كعب بن مالك.

واعتبار هذا "الوجود المجرد من صفة المواجهة" مرحلة من مراحل الدعوة، ليس من الحكمة، لأن المرحلية "تصور" يحكم دافع المواجهة في ضمير كل مسلم ..

فلهذا تأتي نصوص المرحلية معبرة عن توجيه دافع قائم ، مثال قول الله:

﴿كُفُّواْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ الصَّلَاةَ﴾ (النساء:٧٧)

حيث أن الأمر بالكف: يثبت وجود الدافع.

وحقيقة المواجهة ليست رهناً بقوة الجماعة، إذ أنه من الممكن أن تتأكد مع الاستضعاف في صورة السرية باعتبارها صورة من صور المواجهة.

إذن فعلاقة "صفة المواجهة" بـ"صفة المرحلية" تتعلق بصورة المواجهة حسب مرحلة الدعوة، ولكنها لا تعني انعدامها في أي مرحلة من تلك المراحل.

* * *

الفصل السادس

منهج الدعوة

وتحديد منهج الدعوة من خلال مفهوم الحكمة .. له مقدمة أساسية: وهي الإحكام.

وقد سبق قول ابن القيم في الدرجة الأولي من الحكمة: (أن تعطي كل شيء حقه، ولا تعديه حده، ولا تعجله عن وقته) قوله: (ولما كانت الأشياء لها مراتب وحقوق، تقتضيها شرعاً وقدراً، ولها حدود ونهايات، تصل إليها ولا تتعداها، ولها أوقات لا تتقدم ولا تتأخر، كانت الحكمة مراعاة هذه الجهات الثلاث، بأن تعطي كل مرتبة حقها الذي أحقه الله لها بشرعه وقدره، ولا تتعدى بها حدها، فتكون متعدياً مخالفاً لله، ولا تطلب تعجيلها عن وقتها، فتخالف الحكمة، ولا تؤخرها عنه، فتفوتها).

فالحكمة إذن:

فعل ما ينبغي .. على الوجه الذي ينبغي .. في الوقت الذي ينبغي.

وتلك هي الحدود الأساسية للعمل الإسلامي.

١. ضرورة العمل.

٢. صيغة العمل.

٣. وقت العمل.

بحيث تتم هذه الحدود، من خلال الإحكام بين جوانب مفهوم الحكمة.

وتحديد منهج الدعوة من خلال الإحكام بين جوانب المفهوم في التطبيق يقتضي عدة أمور:

- ألا تطغي مراعاة الواقع على الحق، كما لا نتجاهل هذا الواقع في إحقاق الحق.
- ولا نفقد في واقعنا الإحساس بالغاية، كما لا نتخيل غاية دون واقع.
- ولا نبدأ بغير الوجود الصحيح للفرد المسلم، ولا ننتهي عند وجوده دون تحقيق الغاية به.

وحتى لا تطغى مراعاة الواقع على الحق:

يجب إثبات الحق في وضع المراعاة للواقع، ولو بالتقرير القولي، إذا لم يكن هناك القدرة على التحقيق الفعلي له، والمثال التطبيقي لهذا المبدأ هو قول رسول الله ﷺ لعائشة: (لولا أن قومك حديثوا عهد بجاهلية، لهدمت الكعبة وجعلتها على قواعد إسماعيل)[1].

(١) البخاري (١/٢٢٤) ومسلم رقم (١٣٣٣) عن عائشة.

فمراعاة أن القوم حديثو عهد بجاهلية، لم يمنع إثبات الحق في جعل الكعبة على قواعد إسماعيل بتقرير رسول الله ﷺ القولي.

ومراعاة الواقع دون إثبات الحق، هي التي تجعل من مجرد المراعاة ذاتاً للمنهج بغير الحق.

كما لا نتجاهل الواقع في إحقاق الحق ..

والمثال التطبيقي لهذا المبدأ: هو ما فعله رسول الله ﷺ مع اليهود بعد غزوة الأحزاب؛ ذلك أن بني قريظة كانت ممن اشترك ضد النبي ﷺ في هذه الغزوة، بعد أن تعاهدوا مع النبي ﷺ على الأمان معه، وكانت بنو قريظة حليفة للأوس، فأراد النبي ﷺ أن يحاسبهم على غدرهم الذي غدروه مع مراعاة هذا التحالف القائم بينهم وبين الأنصار، حتى لا يغضب الأنصار لحلفائهم .. ويترتب على ذلك فتنة بين المسلمين.

فكانت الحكمة في ذلك هي أن النبي ﷺ أنزل بني قريظة على حكم حلفائهم، لكي يكون الحكم متضمناً للحق الذي يجب أن يكون، وكذلك متضمناً لإنهاء التحالف الذي كان قائماً.

عن أبي سعيد الخدري قال: (نزل أهل قريظة على حكم سعد بن معاذ، فأرسل النبي ﷺ إلى سعد فأتي به على حمار، فلما دنا من المسجد قال للأنصار: قوموا إلى سيدكم أو خيركم، فقال: هؤلاء نزلوا على حكمك. فقال: تقتل مقاتليهم وتسبي ذراريهم، قال: قضيت بحكم الله، وربما قال: بحكم الملك)[1].

ولعلنا نلحظ في الحديث قول الرسول ﷺ للأنصار: قوموا لسيدكم، والسبب في ذلك هو أنه ﷺ يريد أن يثبت له السيادة عليهم، ليكون حكمه هو حكم جميع الأنصار.

ولا نفتقد في واقعنا الإحساس بالغاية والعاقبة، لنرتفع فوق مشقة هذا الواقع وعقباته، وهؤلاء هم صحابة رسول الله يطلبون منه الدعاء بالنصر في فترة الاستضعاف فيقول: (والله ليتمن الله هذا الأمر، حتى يسير الراكب من مكة إلى حضرموت، لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه .. ولكنكم تستعجلون)[2].

وهذا نبينا عليه الصلاة والسلام، يعترضه حجر وهو يحفر الخندق مع الصحابة، فيضربه ضربة ويقول: (الله أكبر فتحت الفرس) ويضربه الثانية ويقول: (الله أكبر فتحت الروم)[3].

ثم لا نبدأ بغير الوجود الصحيح للفرد المسلم لأنه ضمان الإحكام بين مراعاة الواقع، وإحقاق الحق، والإحساس بالغاية. حيث أن هذا الإحكام بين هذه الأمور هو البصيرة التي جاءت في

(١) سبق تخريجه.

(٢) البخاري (٧/١٦٤) عن خباب بن الأرت.

(٣) أخرجه النسائي (٦/٤٣) من طريق أبي سكينة عن رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وسنده لا بأس به.

قول الله: ﴿قُلْ هَـٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (يوسف:١٠٨).

وفي العموم فإن أخذ هذا الدين بكل جوانبه هو شرط القيام به وفي هذا يقول النبي ﷺ: (لن يقوم بهذا الدين إلا من أحاط بكل جوانبه)[١].

فالبصيرة صفة ذاتية للفرد الداعية ولذلك جاء النص بلفظة (أنا) ولفظة (ومن اتبعني) حيث يفيد اللفظان ثبوت الصفة الفردية.

وبعد هذه المقدمة الأساسية يتحدد منهج الدعوة من خلال مفهوم الحكمة ..

من منطلقين:

أولاً: الإحكام بين أبعاد العمل.

ثانياً: الإحكام بين مراحل العمل.

***

المنطلق الأول: وهو الإحكام بين أبعاد العمل:

فهو الإحكام بين: مهمة التبليغ ، واستخدام القوة ، وقيام السلطة.

(أ) التبليغ بالكلمة: وتحقيق الحكمة فيه تقتضي ثلاثة أمور:

الأول: الإحكام بين الواقع العملي للدعوة ، ومهمة التبليغ.

الثاني: حكمة التبليغ.

الثالث: الصراع بالكلمة.

الأول: أما عن الإحكام بين الواقع العملي ومهمة التبليغ:

فترجع قيمته إلى أن هذا الإحكام هو الذي يحمي طاقة الدعاة العلمية من أن تتبدد في تجاوز الكلمة لحدودها، لأن نسبة الطاقة العملية والكلامية في الإنسان نسبة عكسية.

وهذا معناه أن أي تجاوز للقدر الصحيح، يترتب عليه مباشرةً انحسار عملي في الواقع ، أما دليل التناسب العكسي بين الطاقة الكلامية والعلمية في الإنسان هو هذا الموقف الذي كان فيه المسلمون على سفر، فتلاحى رجل من المهاجرين ورجل من الأنصار، فقال المهاجري: يا للمهاجرين ! وقال الأنصاري: يا للأنصار ! حتى كثر الكلام، فأراد الرسول ﷺ أن يوقفه، فسار بهم جميعاً ولم يُعَرِّس[٢]، حتى أصابهم التعب، فتوقف الكلام، فأمرهم أن يعسكروا بعد التعب، فيقول أحد الصحابة وهو يصف الحال الذي كانوا عليه: (فما أن وجدنا مس الأرض حتى نمنا)[١].

(١) عزاه السيوطي في جامعة الكبير ل (أبي نعيم) عن على رضي الله عنه ــ كما في كنز العمال (٣/٨٣).

(٢) لم يسترح في سفره .

(٣) أخرجه البخاري (٨/٦٤٨)، ومسلم (٢٥٨٤) والمهاجري هو: جهجاه بن قيس الغفاري، والأنصاري هو: سنان بن وبرة الجهيني.

وبذلك أنهي رسول الله ﷺ ظاهره الكلام باستيعاب الطاقة، ولهذا يجب أن يكون الإحكام بين الكلمة والعمل أساساً في تحديد منهج الدعوة، وتبليغ الحق ليس مجرد كلام ولكنه تصرف صحيح، وتعامل سليم، يتعامل به الدعاة مع الناس.

وهذا سليمان يدعو ملكة سبأ بموقفين عمليين دون دعوة مباشرة بالكلام.

وكان الموقف الأول لإثبات صفة الذكاء وقوة العقل، فإنه أخذ العرش ونَكَّرَه لها، ثم عرضه عليها، وسألها: أهكذا عرشك ؟ فأجابت: كأنه هو !! فكانت أعقل إجابة: فلم تقل هو، لأنه مُنَكَّر ولم تقل: ليس هو، لأنه هو.

وكان الموقف الثاني لإسقاط الغرور عن نفسها: (قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) (النمل:٤٤)

وبإثبات الذكاء وإسقاط الغرور تمت الدعوة ودخلت في الإسلام.

وتحقيق الإحكام بين الكلمة والواقع يكون من خلال عدة أسس:

(أ) **التركيز الأدبي في التبليغ:** ويعني تحقيق أكبر تبليغ للحقائق بأبسط الأساليب بأن تسهم كل كلمة في هذا التبليغ في تأكيد وإثبات هذه الحقائق .

ومن أجل هذه الصفة أعطي الله عز وجل نبينا عليه الصلاة والسلام جوامع الكلم[١].

ومثال لتوضيح تلك الصفة في أحاديث رسول الله ﷺ . هو قوله : (أن المقسطين على منابر من نور على يمين عرش الرحمن يوم القيامة)[٢]. فتجد أن مضمون الحديث هو الإعلاء من شأن المقسطين، ونجد أن كل ألفاظ الحديث قد ساهمت في تأكيد هذا المضمون بلا زيادة أو نقصان.

(فالمقسطون على منابر) أفادت معنى التعظيم ..

(على منابر من نور) فزاد معنى التعظيم ..

(على يمين عرش الرحمن) زادت معنى التعظيم ..

(يوم القيامة) زادت معنى التعظيم.

ويدخل تحت صفة التركيز الأدبي .. الأسلوب الاصطلاحي الذي يتم به التعبير عن المعاني الكثيرة بمفهوم واحد محدد. مثال قول الرسول ﷺ لوفد عبد القيس عندما سألوه أن ينصحهم بنصحية يرجعون بها إلى قومهم فقال: (أن تؤمنوا بالله، ثم قال: أتدرون ما الإيمان بالله؟

(١) (أوتيت جوامع الكلام) صحيح ومن أتم ألفاظه ما رواه أحمد وأبو يعلى والطبراني بسند صححه الألباني: (أعطيت فواتح الكلم وجوامعه وخواتمه).

(٢) أخرجه احمد بهذا اللفظ (٢/٢٥٠) عن أبي هريرة وأخرجه البخاري (٦/١٢٨) ومسلم رقم (٥٢٣).

قالوا: الله ورسوله أعلم !. قال: الإيمان هو شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ...)[1].

(ب) **تحديد الأسلوب العملي لتطبيق أي حقيقة:** وهذه أبرز خصائص الحديث النبوي، ومثاله قول رسول الله ﷺ: (لن تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولن تؤمنوا حتى تحابوا)[2] وإلى هنا يقرر الرسول حقائق ثم يقول ﷺ: (أفلا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم ؟! .. أفشوا السلام بينكم) محدداً الأسلوب العملي لتحقيق الحقائق المقررة.

(ج) **رفض أي كلمة ليس لصاحبها واقع إيماني صحيح:** ولذلك يرفض القرآن شهادة المنافقين لرسول الله ﷺ بالرسالة، وذلك بقوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ (المنافقون:١).

فالآية تؤكد رفض شهادة المنافقين من أجل واقعهم غير الصحيح.

ولما كان المرفوض ذاته قضية صحيحة، وهي شهادة بالرسالة للرسول، فإن الآية تتضمن قبل رفضها من المنافقين لنفاقهم، صحة هذه الشهادة في ذاتها وهي قول الله: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ﴾ (المنافقون:١) ، قبل قوله سبحانه: (وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ) (المنافقون: ١) ، فعندما تكون القضية هنا واحدة وهي الشهادة بالرسالة، فيؤكدها القرآن بذاتها، ويرفضها من المنافقين، فإن هذا يثبت ارتباط قضية الدعوة بصفتها المجردة، بالواقع الإيماني والعمل الصحيح لأصحاب الدعوة.

الثاني: حكمة التبليغ وتتحقق بثلاثة أمور:

(أ) **تصور الداعية عن مهمة التبليغ:**

وهذا التصور يرتكز على عدة حقائق:

ـ أن الدعوة مجرد سبب في تحقيق غاية الهداية، وهذه الحقيقة تحمي الداعية من الغرور إذا تحققت الاستجابة، ومن اليأس إذا كان الإعراض.

كما أن هذه الحقيقة تحقق للداعية توازناً تجاه الناس الذين هم موضع دعوته، فلا يلاحق بالتبليغ فرداً تأكد إعراضه، أو يهمل آخر لم يتم إبلاغه.

ـ أن الداعية بدعوته حجة، وهذه الحقيقة تجعل الداعية يبذل أقصى طاقته في التبليغ كاملاً وواضحاً مستغلاً في ذلك أي فرصة يراها متاحة لهذا التبليغ، كما أن هذه الحقيقة تحمي الداعية من أن يبدل أو يغير في دعوته، ودليل ذلك قول الله عز وجل: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن

(١) أخرجه البخاري (١/١٢٩) ومسلم رقم (١٨) عن ابن عباس رضي الله عنه.
(٢) أخرجه مسلم رقم (٥٤) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ﴾ (الكهف:٢٩).

ـ أن الدعوة نجاة للداعية نفسه، وعذر له عند الله، وهذه الحقيقة تجعل الداعية يواصل دعوته، بصرف النظر عن موقف من يدعوهم، ودليل ذلك قول الله: ﴿وَإِذَ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُواْ مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ (الأعراف:١٦٤).

ومع كون الدعوة سبب هداية وحجة على الناس، وإعذار للداعية، تأتي الحقيقة الأخيرة وهي :

ـ أن الدعوة حرص كامل من الداعية على من يدعوهم، وهذا صاحب سورة ياسين يدعو قومه فيقتلوه، ويدخل الجنة، وبالرغم من ذلك فإنه لا ينسى قومه الذين قتلوه، ولا يخفي أمله في إيمانهم وهو في الجنة: ﴿قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ (٢٦) بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾ (يس:٢٦، ٢٧).

(ب) نظام التبليغ:

والأساس في نظام التبليغ هو عرض قضية التوحيد ابتداء بتبليغ كلمة لا اله إلا الله، وهي حد الإسلام، وبذلك يتقرر خضوع الناس لله عز وجل، ليبدأ تبليغ التكاليف الشرعية، والدليل أن النبي ﷺ بعث معاذا إلى اليمن فقال: (ادعهم إلى شهادة أن لا اله إلا الله، وأني رسول الله، فإن هم أطاعوك لذلك، فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة في أموالهم، تؤخذ من أغنيائهم وترد على فقرائهم)[1]، ولعلنا نلاحظ في الحديث: أن مفهوم "الدعوة" مرتبط بالشهادتين وأن بقية الأحكام "علم" يقتضيه الاستجابة لتلك الدعوة، ولذلك قال في الشهادتين: (ادعهم) وفي بقية الأحكام: (فأعلمهم).

كما نلحظ: ارتباط التبليغ بموقف من يسمعونه، فإن كانت الاستجابة يتقرر استمرار التبليغ، وإن كان الإعراض فإن التبليغ يجب أن يأخذ صورة المواجهة والمعالجة لهذا الإعراض، ولذلك اشترط الرسول ﷺ الطاعة في كل قضية، للانتقال إلى تبليغ قضية أخرى فقال: (فإن هم أطاعوك لذلك .. فأعلمهم).

والبدء بتبليغ كلمة لا إله الله يقتضي تقييم الواقع الإعتقادي الذي سنتجه إليه بالتبليغ، لأن هذا التقييم هو الذي ستتحدد به قضية البدء بصورتها المباشرة، فإذا كان الواقع الذي سنتجه إليه بالتبليغ أهل الكتاب مثلاً، كان البدء بتبليغ كلمة لا إله إلا الله مع تحديد المدلول الصحيح للكلمة، بما ينفي أي انحراف لمدلول اللفظ عندهم.

ولذلك قال رسول الله ﷺ: (فو الله ما سمع به يهودي ولا نصراني إلا شهد أن لا إله إلا

(١) أخرجه البخاري (٣/٣٢٢) ومسلم رقم (١٩) عن ابن عباس.

الله وأني رسول الله، وأن عيسى عبد الله ورسوله، وأن العزير عبد الله ورسوله، إلا أدخله الله الجنة)[1].

ولذلك كان عليه الصلاة والسلام يعطي تقييمه للواقع الذي سيوجه إليه الدعوة، قبل أن يبعث الدعاة، ويقول: (إنك ذاهب إلى أهل كتاب ..) وهكذا.

والبدء بتبليغ كلمة لا إله إلا الله، سيمثل أعمق بعد اعتقادي يسهل بتحقيقه اعتناق كل أصول الدعوة، ولهذا لما جاء المشركون إلى أبي بكر الصديق وقالوا: إن صاحبك قد زعم أنه أسري به، فقال: (لوقال ذلك فقد صدق لقد صدقته في أكبر من ذلك)[2] وهذا يعني أن التصديق في الحقيقة الكبيرة، يفتح طريق التصديق أمام الحقائق الأخرى في نفس الإنسان.

وبعد تحديد نظام التبليغ بالاعتبار المنهجي، تبقى إضافة في هذا التحديد بالاعتبار العلمي، وهي أن الدعوة قد تقتضي عملياً الدخول في مواجهة مع الجاهلية، من خلال أي قضية غير قضية التوحيد، وعندئذ يكون الموقف الإسلامي هو قبول المواجهة، حتى لا يعطي الرفض صورة العجز عنها، وقد وضحت هذه الحقيقة عندما سأل اليهود نبينا عليه الصلاة والسلام عن الروح، ولم ينزل الوحي، فحزن النبي حزناً شديداً، وقالت اليهود ذهب عنه شيطانه، رغم أن سؤال الروح لم يكن داخلاً في حد الإسلام، ولكنَّ تأخر الإجابة، هو الذي أحزن النبي ﷺ هذا الحزن الشديد، غير أن قبول المواجهة يكون بعدة اعتبارات أهمها:

- الحذر من أن تتضمن المواجهة في غير قضية حد الإسلام إقراراً ضمنياً لما عليه أصحاب الجاهلية من بطلان في الاعتقاد، وذلك بتأكيد أن المواجهة مدخل إلى الإسلام، وليست داخلة في حد الإسلام. كذلك الانتباه إلى الهدف الجاهلي لجر الفكر الإسلامي إلى قضايا تصرف بها العقل الإسلامي عن فكر المواجهة الصحيح، وذلك بأن تكون المواجهة بالقدر الذي يثبت قدرة الفكر الإسلامي على مواجهة أي قضية.

(ج) الأسلوب المباشر في التبليغ:

ـ المخاطبة بقدر العقل: وهو مبدأ متفق على ضرورته، والمقتضى العام للمخاطبة بقدر العقل هو البساطة والوضوح ولذلك قال علي ابن أبي طالب: "حدثوا الناس بما يعرفون، أتحبون أن يُكذَّبَ الله ورسوله" وعنه أيضاً: "ما أنت بمحدث قوماً حديثاً لا تبلُغه عقولهم، إلا كان لبعضهم فتنة".

ولذلك يعتبر معاذ بن جبل رضى الله عنه: أن أي كلمة غير واضحة المعنى، تكون مجانبة لمعنى الحكمة، وزيغ عنها، فيقول كما يروي أبو داود: [3]

(١) متفق عليه: البخاري (٦/٤٧٤) ومسلم رقم (٢٩) عن عبادة بن الصامت.
(٢) أخرجه البيهقي في الدلائل، انظر الفتح (٧/١٩٩)، وله طريق آخر عن معمر بن راشد انظر ابن كثير (٤/٢٧٥).
(٣) أخرجه أبو داود في كتاب السنة (١٢/٣٦٣) من طريق يزيد بن عميرة عن معاذ موقوفاً.

"وأحذركم زيغة الحكيم، فإن الشيطان قد يقول كلمة الضلالة على لسان الحكيم، قال: قلت لمعاذ: ما يدريني (رحمك الله) أن الحكيم قد يقول كلمة الضلالة ؟!. قال: بلى ، اجتنب من كلام الحكيم المشتهرات التي يقال لها ما هذه . قال ابن إسحاق عن الزهري قال: بلى ، ما تشابهه عليك من قول الحكيم حتى تقول ما أراد بهذه الكلمة".

ولعلنا نلاحظ خطورة الكلمة غير الواضحة المعنى من وصفها بكلمة الضلالة، ولكن إدراك الصورة التطبيقية لهذا المبدأ هو الذي سيعطيه قيمته، وأحاديث رسول الله ﷺ هي التي توضح لنا الملامح الصحيحة في التطبيق.

ـ فعن سفيان بن عبد الله الثقفي قال: قلت يا رسول الله: قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً بعدك، فيقول له رسول الله ﷺ: (قل آمنت بالله .. ثم استقم)[1].

فدل السؤال على أن أسلوب التفكير عند السائل، هو التفكير الكلي، فاتفقت الإجابة مع الأسلوب.

ـ بينما يأتي سائل آخر ـ بغير أسلوب هذا السائل ـ فيقول للرسول ﷺ: يا رسول الله أي العمل أفضل ؟ قال: (الصلاة على وقتها) قيل: ثم أي ؟ قال: (بر الوالدين) قيل: ثم أي ؟ قال: (الجهاد في سبيل الله). فيقول السائل: ولو استزدته لزادني [2] .. وهذا دليل على تجاوب رسول الله ﷺ مع السائل في أسلوب تفكيره التحليلي والمتأني.

ـ ويأتي أعرابي آخر تقول الصحابة فيه: (يُسمَع دَوِيٌّ صوته ولا نفقه ما يقول)[3] وهذا طبيعة السائل .. فيقول: يا محمد !

ـ ماذا فرض الله على في اليوم والليلة ؟

ـ قال خمس صلوات إلا أن تطوع.

ـ قال : ماذا فرض الله على في العام ؟

ـ قال : صيام شهر إلا أن تطوع.

ـ قال : والله لا أزيد على هذا ولا أنقص.

ـ قال: أفلح أن صدق، أو دخل الجنة أن صدق. (متفق عليه)

وواضح من طبيعة السائل كما وصفتها الصحابة، والأسلوب الذي سأل به .. عنصر السرعة، وواضح كذلك تجاوب رسول الله ﷺ بسرعة الإجابة التي لاحقت كل أسئلته ..

ـ بينما يأتي سائل آخر بغير الأساليب السابقة ليسأل النبي ﷺ ..

(١) رواه مسلم (٣٨) عن سفيان بن عبد الله الثقفي.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) أخرجه البخاري (١/١٠٦) ومسلم (١١) عن طلحة بن عيد الله.

فيقول: (أو يأتي الخير بالشر ؟ فسكت عنه النبي ﷺ، قلنا يوحَى إليه، وسكت الناس كأن على رؤسهم الطير، ثم إنه مسح عن وجهه الرحضاء .. فقال أين السائل آنفا ؟ وخير هو (ثلاثا) إن الخير لا يأتي إلا بالخير .. وإنه كما ينبت الربيع ما يقتل حبطا أو يلم، كلما أكلت، حتى إذا امتلأت خاصرتاها .. استقبلت الشمس .. فثلطت وبالت .. ثم رتعت)[1] .

ولعلنا نلحظ عمق الإجابة بما يتفق مع عمق السؤال وخصوصاً عندما نحاول تفسير هذه الإجابة .. ومضمونها: أنه مثلما ترعى بقرتان (مما ينبت الربيع) ، فرعت واحدة وأكلت بصورة خاطئة فحبطت، وماتت، ورعت الأخرى وأكلت بصورة صحيحة ، ثم (استقبلت عين الشمس فثلطت وبالت ثم رعت) .

فإن هذا يعني أن مأخذ البقرة الأولي (لما ينبت الربيع) هو الذي قتلها .

ومأخذ البقرة الثانية (لما ينبت الربيع) هو الذي أفادها . ولكن (ما ينبت الربيع ما يقتل حبطا أو يلم).

وعلي هذا كانت الإجابة : (أن الخير لا يأتي إلا بالخير) ولكن مأخذ الناس للخير بصورة خاطئة هو الذي ينشئ الشر.

ومع المخاطبة بقدر العقل تأتي أساليب أخري لها نفس القيمة والأثر ، منها أسلوب الإثارة العقلية الذي تنشط به طاقة التفكير عند الإنسان لفهم الإسلام .

ومثال هذا الأسلوب من أحاديث الرسول ﷺ :

قوله : (كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى !!)

ـ قالوا : ومن يأبى يا رسول الله ؟!

ـ قال : (من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أبى)[2] .

وقوله : (من أكبر الكبائر أن يسب الرجل أباه !!) .

ـ قالوا : كيف يسب الرجل أباه يا رسول الله ؟!

ـ قال : (يسب أبا الرجل .. فيسب الرجل أباه ويسب أمه)[3] .

(١) أخرجه البخاري (١١/٢٤٤) ومسلم (١٠٥٢) عن أبي سعيد.
(٢) أخرجه البخاري (١٣/٣٤٩) عن أبي هريرة.
(٣)أخرجه البخاري (١٠/٤٠٣) ومسلم رقم (٩٠) عن ابن عمرو.

وقوله : (انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً !!)

ـ قالوا : هذا ننصره مظلوماً فكيف ننصره ظالماً ؟

ـ قال : (رُدَّه عن مظلمته ، فإن ذلك نصره)[١] .

وهذه الأمثلة توضح عنصر التعجب من عناصر الإثارة العقلية .. يأتي معه عنصر التساؤل الذي يعطي السامع فرصة المبادرة في التفكير، ومثال هذا الأسلوب من أحاديث الرسول ﷺ:

قوله: (مثل المؤمن كشجرة من شجر البوادي لا يسقط ورقها)[٢].

قال عبد الله بن عمر: فوقع الناس في شجر البوادي، فهممت أن أقول هي النخلة ولكن استحييت لأني كنت أصغر القوم سناً، فقال رسول الله ﷺ : هي النخلة، فقال عمر بن الخطاب: لئن قلتها لكان أحب إلي من كذا وكذا.

وقوله: (سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب) ثم ترك المجلس فقال الناس لعلهم الذين ولدوا في الإسلام ، وقالوا لعلهم لم يسجدوا لصنم وأخذوا يقولون حتى جاء رسول الله ﷺ وقال: (هم الذين لا يرقون ولا يسترقون ولا يتطيرون وعلي ربهم يتوكلون)[٣] .

ومن الحكمة في أسلوب التبليغ بالكلمة .. أساس الارتكاز على الطبيعة الإنسانية في المخاطبة، وهذا الأساس هو الذي يحقق من هذه الطبيعة أقصى إمكانية اقتناع بالحق.

فنجد رسول الله ﷺ: يرتكز على الإحساس الطبيعي بالغربة عند الإنسان، ليؤكد غربة الإسلام فيقول: (بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ فطوبى للغرباء).

قيل: ومن الغرباء يا رسول الله ؟

قال: (الذين يصلحون عند فساد الناس)[٤].

وكذلك الإحساس الطبيعي بالعودة بعد الغربة فيؤكد رسول الله ﷺ معني الرجوع إلى الله عز وجل ، فيقول في دعاء الرجوع من السفر: (آيبون .. تائبون .. عابدون .. لربنا حامدون)[٥] .

كما يركز رسول الله ﷺ على إحساس الإفلاس وهو إحساس بالحسرة، فينقل الرسول الإحساس بالإفلاس في المال .. إلى الإفلاس في الحسنات يوم القيامة ..

فيقول: (أتدرون من المفلس ؟)

فيقولون: المفلس فينا من لا درهم له ولا دينار ..!

(١) أخرجه البخاري (٥/٩٨) عن أنس رضى الله عنه.

(٢) البخاري (١/٢٢٩) ومسلم رقم (٢٨١١) من حديث ابن عمر.

(٣) أخرجه البخاري (١١/٤٠٥) ومسلم رقم (٢٢٠) عن ابن عباس.

(٤) رواه مسلم رقم (١٤٥) عن أبي هريرة ولفظه: (الذين يصلحون ..) عند الطبراني في الكبير (٦٩/١٦٤) من حديث سهل بن سعد.

(٥) البخاري (٦/١٩٢) عن ابن عمر ، ومسلم رقم (١٣٤٤) عن ابن عمر أيضاً .

فيقول: (المفلس من جاء بحسنات مثل الجبال .. وكان قد ضرب هذا، وشتم هذا، وسفك دم هذا، فأخذ من حسناته فأعطيت لهم، حتى إذا فنيت حسناته، أخذ من سيئاتهم فطرحت عليه، فطرح في النار) [١] .

كما يركز رسول الله ﷺ على الإحساس الطبيعي برحمة الأمومة ليؤكد لنا رحمة الله بعباده.

فبعد أن وجد امرأة تحتضن ابنها وترضعه وكانت قد عثرت عليه بعد أن فقدته، فقال رسول الله ﷺ: (هل تظنون أن تلقي هذه بابنها في النار ؟) قالوا : لا يا رسول الله . قال : (إن الله أرحم بعباده من هذه الأم بولدها) [٢] .

- ومن الحكمة في أسلوب التبليغ .. التناسب الدقيق بين صيغة التبليغ وموضوعه:

فإذا كان الموضوع موضوعاً غيبياً مثلاً، فإنه يلزم في أسلوب الحديث عنصر التشبيه والمقارنة بين الغيب والشهادة.

مثال قول رسول الله ﷺ في البعث: (والله لتموتن كما تنامون ولتبعثن كما تستيقظون).

وقوله في النشور: (ثم ينزل ماء من السماء يشبه المني، فينبت الإنسان من الأرض كما ينبت النبات) [٣].

وقوله في المرور فوق الصراط: (كالبرق وكأجاويد الخيل) [٤].

وقوله ﷺ في وصف النار: (ناركم هذه جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم ولو لم تطفأ بالماء سبعاً لما انتفعتم بها) [٥]، وقوله : (أشد ما تجدون من الحر فهو من فيح جهنم) [٦].

كما يلزم الربط بين الغيب والشهادة من خلال الواقع والأحداث والأشخاص ..

فمن خلال الواقع يربط رسول الله ﷺ بين الجنة والقتال فيقول: (الجنة تحت ظلال السيوف) [٧]، ومن خلال الأشخاص يقول الرسول ﷺ: (يا بلال لقد سمعت وقع أقدامك في الجنة فماذا تفعل) [٨] فيقول: يا رسول الله ! ما توضأت وضوءاً إلا صليت ركعتين.

ويشير الرسول ﷺ إلى الرجل ويقول : (من أراد أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى هذا الرجل) [٩] .

---

(١) أخرجه مسلم رقم (٢٥٨١) عن أبي هريرة .
(٢) رواه البخاري (١٠/٤٢٦) ومسلم رقم (٢٧٥٤) عن عمر بن الخطاب .
(٣) أخرجه البخاري في تفسير سورة النبأ (٦٨٩ ــ ٨/٦٩٠) ، ومسلم نحوه (٢٩٤٠).
(٤) أخرجه مسلم رقم (١١٠/ ٦) عن عائشة ، وانظر المسند (٦/١١٠) عن عائشة.
(٥) البخاري (٣٣٠ /٦) ومسلم (٢٨٤٣) عن أبي هريرة.
(٦) أخرجه البخاري (٦/٣٣٠) ومسلم رقم (٦١٧) عن أبي هريرة .
(٧) البخاري (٦/٣٣) ومسلم رقم (١٧٤٢) عن ابن أبي أوفى .
(٨) أخرجه الترمذي رقم (٣٦٨٩) وقال (هذا حديث صحيح غريب) وهو كما قال .
(٩) رواه مسلم رقم (١٤) عن أبي هريرة .

الثالث : الصراع بالكلمة

وأسلوب الدعوة الصحيح لا يعني أن يؤمن كل الناس ، ولكنة يعني أن ترجع أسباب كفر من يكفر منهم إلى نفسه، فلا يكون أسلوب الدعوة ذاته سبباً من أسباب الكفر.

ولذلك فإن أسلوب الدعوة الصحيح لا يلغي افتراض عداء الناس لهذه الدعوة.

وتحديد أسس الصراع بالكلمة بين الجاهلية والإسلام هو المواجهة الحقيقية لهذا الافتراض.

ومن الطبيعي في تحديد حقيقة أي صراع أن نعرف أطرافه أهدافه، وتعريف الكلمة الإسلامية في مواجهة الكلمة الجاهلية هي بداية هذا التحديد.

فالكلمة الإسلامية هي نور الله ، والكلمة الجاهلية هي حركة لسان . ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِؤُواْ نُورَ اللّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ (التوبة:٣٢) .

والكلمة الإسلامية أصلها ثابت وفرعها في السماء ، والكلمة الجاهلية اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاء . تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ٢٥ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾ (إبراهيم:٢٤ ـ ٢٦)

والكلمة الإسلامية هي العليا والجاهلية هي السفلي ... ﴿إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُواْ السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (التوبة:٤٠) .

وواضح من النص أن علو الكلمة الإسلامية علو ذاتي وليس هذا العلو نتيجة من نتائج هذا الصراع[1] .

وبعد تحديد أطراف الصراع يتأكد أن الكلمة الجاهلية ليست شيئاً فهي حركة خبيثة بالأفواه لا حقيقة لها ولا أصل ولا شأن لها ولا قوة ورغم ذلك يبلغ تأثيرها في الواقع البشري حد السيطرة الكاملة تقريباً وتحليل هذه الظاهرة هي أساس اتخاذ الموقف الإسلامي الصحيح في هذا الصراع .

والكلمة الجاهلية وحي شيطاني بدليل قول الله: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاء رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ (الأنعام:١١٢).

(١) (وجعل كلمة الذين كفروا السفلي وكلمة الله هي العليا) فاقترنت كلمة الكفار بالجعل، أي أنها نتيجة لشيء، وكلمة الله أكد علوها بالضمير المنفصل وبالجملة الإسمية الدالة على الثبوت عكس الجملة الفعلية التي تدل على التغير.

ونرى زخرف القول في الكلمة الجاهلية ممثلاً في :

الشكل المنطقي[1] .. فعندما أنزل الله تحريم الميتة قالت اليهود: وكيف لا نأكل مما ذبح الله ونأكل مما ذبحنا نحن [2].

فأنزل الله ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ (الأنعام:١٢١)

كما نرى زخرف القول في الصورة المثالية التي تحاول الجاهلية أن تصيغ فيها كلمتها وفكرها وقد وضحت هذه الصورة في طواف المشركين عرايا حول البيت الحرام معللين ذلك بضرورة عدم الطواف بالثياب التي يخطئون فيها.

ونرى زخرف القول في الصفة المبدئية التي تعطيها الجاهلية لنفسها ليظهر الجاهليون كأصحاب مبدأ واثقين بما معهم، ثابتين على ما هم عليه .. وهذا أبو جهل يقول قبل غزوة بدر: اللهم أقطعنا للرحم، وأتانا بما لا نعرف، فأحنه الغداة.

فكان المستفتح [3] ..

قال السدي: كان المشركون حين خرجوا من مكة إلى بدر، فأخذوا بأستار الكعبة، فاستنصروا الله وقالوا: اللهم انصر أعلى الجندين، وأكرم الفئتين، وخير القبيلتين، فقال الله تعالى: ﴿إِن تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءكُمُ الْفَتْحُ﴾ (الأنفال:١٩) يقول: لقد نصرتم وقلتم وهو محمد ﷺ .

ونرى زخرف القول في المظهر الإنساني الذي تظهر به الجاهلية .. وهذا عقبة بن ربيعة يقول في الإسلام :(فَرّق الناس ، وخَرّب الديار ، وجعل الولد يقتل والده).

وزخرف القول هو الخط الأول من خطوط الصراع بالكلمة من الجانب الجاهلي ، يليه خط الفصل بين الإنسان والإسلام ، وذلك من خلال منع الكلمة الإسلامية من الظهور: ﴿لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ (فصلت:٢٦).

ومقاومة أثر الكلمة إذا ظهرت، ومن ذلك إصرار المنافقين على اسم يثرب بعد أن دخل الإسلام في المدينة فسميت طيبة ، باعتبار أن هذا الاسم أثر من آثار الإسلام في الواقع : ﴿يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا﴾ (الأحزاب:١٣) كما تمارس الجاهلية الفصل بين الإنسان والإسلام من خلال المساومة عليه والمداهنة فيه: ﴿وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ (القلم:٩) حتى يضيع الحق بتلك المداهنة.

(١) والشكل المنطقي من أخطر الأساليب في إضلال الإنسان ، بدليل قول رسول الله صلى اله عليه وسلم: (يأتي الشيطان أحدكم فيقول له: من خلق السموات؟ فيقول: الله ! ومن خلق الأرض؟ فيقول: الله ! فيقول له: ومن خلق الله ؟) رواه مسلم، ويراجع كتاب نقض المنطق للإمام ابن تيمية.

(٢) أخرجه البخاري (٦/٣٣٦) ومسلم (١٣٤) عن أبي هريرة.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (٥/٤٣١) وسنده جيد.

ومن أخطر الأساليب الجاهلية للفصل بين الإنسان والإسلام عندما يفرض كأمر واقع هو اتخاذ موقف المتبني له والداعي إليه، والرافع لشعار الإيمان به ..!

وقد كانت هذه الفكرة هي علة المحاولة الساذجة التي حاولها أبرهة الحبشي ، عندما يئس من هدم الكعبة، فبنى كعبة أخرى في بلاده ليصرف الناس عن بيت الله الحرام.

وكذلك عندما بنى المنافقون مسجداً ضراراً ليصرفوا الناس عن مسجد رسول الله ﷺ.

وبناء الكعبة المزيفة ومسجد الضرار .. هو موقف الجاهلية دائماً عندما تفشل في مواجهة واقع إسلامي.

وتعتبر الجاهلية أن الفصل بين الإنسان والإيمان ابتداء، والفصل بين المؤمنين وحقيقة الإيمان، هو الوسيلة الأساسية التي تفر بها من مواجهة مؤكدة الفشل مع الوجود الإيماني الصحيح، وهذه قريش تعذب، ثم تغلق أبواب التعذيب بعد أن وجدت في التعذيب إصرار على الإيمان وتمسكاً به.

وتفتح أبواب الدنيا .. بآمال يصعب الفرار منها.

(إن كنت تريد مالاً أعطيناك ..[1]

إن كنت تريد سيادة سودناك ..

وعندنا أجمل بنات العرب ..)

فالدراهم المعدودة .. أثقل وزناً من الحجر الذي كان على صدر بلال !

وإشارة الإغراء .. أسرع إنزافا من الحربة التي ضربت بها سمية في فرجها !

والإيمان هو الحقيقة .. والدليل عليها كل كلمة حق خالصة.

هذه هي أبرز الخطوط التي تتحرك فيها الجاهلية في مجال الصراع بالكلمة مع الإسلام.

واستمراراً في تحديد طبيعة الصراع بالكلمة بين الجاهلية والإسلام، تتحدد كذلك الأسس التي يجب أن يتحرك بها المسلمون في صراع الكلمة مع الجاهلية.

وأبرز هذه الأسس:

(أ) رد الفكر الجاهلي إلى الواقع الجاهلي:

وقيمة هذا الأساس هي إبراز التناقض بينهما لرد أي إدعاء جاهلي وتكذيبه، ولهذا رد القرآن إدعاء اليهود والنصارى بأنهم أبناء الله إلى واقعهم:

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاء اللّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ﴾ (المائدة:١٨) .

(١) أخرجه ابن إسحاق في المغازي كما في سيرة ابن هشام (١/١٨٥) وحسن الألباني إسناده عن محمد بن كعب القرظي مرسلاً .

(ب) كمال المواجهة :

وأساس الكمال في الجاهلية يعني أن يكون هناك رد لكل فكرة تثيرها الجاهلية ضد الإسلام، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ (الفرقان:٣٣).

كما يعني أن تكون الكلمة الأخيرة في أي جدل: هي الكلمة الإسلامية وهذه قاعدة نجدها في كل حوار جاء في كتاب الله بين الجانب الإسلامي والجاهلي.

وحتى عندما يضطر المسلم للسكوت في جدل مع الجاهلية، فإنه يقول ما يثبت به قدرته على المواجهة ويثبت أن سكوته ليس عجزاً، إنما تنزها عن الاستمرار في مجادلة مع الجاهلية ليست بالحسنى وذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ (الفرقان:٦٣).

(ج) استرداد المفاهيم المغتصبة:

وهذا الأساس يعني أن نسترد أي مفهوم اغتصبته الجاهلية، وأضافته إلى واقعها الفكري لتؤثر من خلاله على العقل البشري، وقد عرض القرآن حواراً بين مؤمن آل فرعون وبين فرعون استرد فيه المؤمن مفهوم (الرشاد) الذي اغتصبه فرعون فوصف به نفسه ..

وكان الحوار هو قول الله: ﴿يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِن بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ (غافر:٢٩) ..

ويستمر الحوار: ﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ (غافر:٣٨).

فيسترد المؤمن بذلك مفهوم الرشاد، وبهذا الأسلوب تنشأ ضرورة استرداد أي مفهوم مغتصب، بالتحديد الإسلامي الكامل لهذه المفاهيم، وإثبات أنها لا تحتوي مضموناً، ولا تمثل معنى إلا بالتصور الإسلامي.

ومثال ذلك مفهوم (العدل الاجتماعي) الذي اغتصبته الشيوعية ..

ومفهوم (المحبة) الذي اغتصبته الصليبية ..

(د) الجدل بالتي هي أحسن .. وهو أهم الأسس:

والجدل بالتي هي أحسن، هو قرينة الحكمة في النص القرآني الذي أمر الله فيه بالدعوة إلى سبيله بها: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ (النحل:١٢٥) وتحديد المبادئ التي نسير عليها في الجدل مع الجاهلية، من أهم أسس الصراع بالكلمة.

وهذه المبادئ تتحدد بصفة أساسية في عدة أمور:

١. **مبدأ افتراض المخالفة:** وهو المدخل الذي يضع الطرف المجادل في أول الطريق الصحيح للتفكير، وبعد أن يطمئن إلى أن الطرف المسلم يضع نفسه معه في موضع المجادلة المشتركة لمعرفة الحق. ودليل هذا المبدأ هو قول الله:

﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ (سبأ:٢٤).

والمساواة بين الطرفين في احتمال الهدى أو الضلال، لا يعني المساواة بين تصور الطرفين لأن النص أثبت التقابل التام في التصور: ﴿لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾(سبأ:٢٤) ..

كما لا يعني انتقاض اليقين فيما عليه الجانب المسلم ، ولكنه افتراض جدلي يثبت التجرد الإسلامي للحق.

وقوله :﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾(سبأ:٢٤) ، هذا من باب اللف والنشر: أي أن واحد من الفريقين مبطل والآخر محق، لا سبيل إلى أن تكونوا أنتم ونحن على الهدى أو على الضلال، بل واحد منا مصيب)[١].

قال قتادة: (قد قال ذلك أصحاب محمد ﷺ للمشركين: والله ما نحن وإياكم على أمر واحد .. إن أحد الفريقين لمهتد)[٢].

٢. نفي الفضل الشخصي في مجال الجدل:

وهذا ما نتعلمه من رسول الله ﷺ ..

فمن حيث الوصول إلى الحق يكون الدليل قول الله:

﴿وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي﴾(سبأ:٥٠)

ومن حيث الاعتقاد فيه يكون الدليل قول الله:

﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ﴾(الزخرف:٨١) .

فليس لي موقف شخصي تجاه العقيدة؛ إلا التسليم بما يأمرني به ربي ..

ومن حيث التكليف به يكون الدليل: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ﴾(هود:٨٨).

وهذا ما يثبت كذلك التجرد الإسلامي للحق.

٣. **مبدأ طلب الدليل**: وهو كذلك مبدأ جدلي يجب الالتزام به حتى مع الاعتقاد ببطلان الأمر الذي نطلب عليه الدليل، ودليل ذلك قول الله:

﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾(البقرة:١١١).

٤. **مبدأ السماع الكامل**: وهو المبدأ الذي يحقق صفة التدبر، لأن التدبر من الدبر أي الآخر. وهذا يعني أن التدبر لا يتحقق إلا بسماع الكلام إلى آخره.

كما أن سماع الطرف المقابل إلى النهاية يوحي بثقة الطرف المستمع فيما عنده، وهذا رسولنا عليه الصلاة والسلام يتحدث إليه عتبة بن ربيعة فلا يقاطعه الرسول حتى ينتهي ثم يقول له: (انتهيت)؟. قال : نعم. قال: (فاسمع مني)[٣] وهكذا.

(١) تفسير ابن كثير.

(٢) تفسير الطبري.

(٣) أخرجه ابن إسحاق في المغازي كما في سيرة بن هشام (١/١٨٥) حسنه الألباني.

٥. **مبدأ الدفاع عن الرأي:** وهو معنى الجدل، والالتزام بهذا المبدأ سيحدد مقياساً علمياً لأطراف الجدل، لأنه لن يدخل الجدل إلا من هو على يقين بما عليه من رأي، ومجرد اتهام الرأي المخالف لا يتطلب العلم الذي يتطلبه الدفاع عن الرأي الصحيح. ولذلك فإن الالتزام بمبدأ الدفاع عن الرأي سيترتب عليه ارتفاع المستوى، العلمي اللازم لتكوين الرأي مع انحسار موجة الجدل في حدود الضرورة.

ثانياً: استخدام القوة:

ومع الأسلوب الصحيح في التبليغ، والمواجهة السليمة في الصراع بالكلمة بين الجاهلية والإسلام، تتأكد ضرورة القوة في مهمة التبليغ.

فللقوة أثر عميق في فهم الحق، ولهذا قال قوم شعيب له: ﴿قَالُواْ يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيراً مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا﴾ (هود:٩١) وواضح من الآية أن رؤية قوم شعيب له ضعيفاً هي علة عدم فقههم للدعوة.

ولذلك يأمر الله عز وجل نبينا عليه الصلاة والسلام أن يشرد بالكفار من خلفهم لكي يتذكروا ويفهموا: ﴿فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ (الأنفال:٥٧) .

واعتبار القوة وسيلة هداية .. يحتم أن تصطبغ الدعوة بها.

ولهذا يجعل الرسول ﷺ معنى القوة محتوياً لمضمون الدعوة، فيقول: (بُعِثْت بالسيف بين يدي الساعة، وجعل رزقي تحت ظل رمحي، وجعل الذلة والصغار على من خالف أمري) [١] .

ومن أجل اصطباغ الدعوة بصبغة القوة تجد آيات قرآنية وأحاديث نبوية ليس القتال موضوعها ولكن يشعر من يقرؤها بامتزاج القوة في حقيقة هذا الدين . مثال قوله تعالي : ﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى﴾ (النجم:٩) في تحديد المسافة التي كانت بين رسول الله ﷺ وعرش الرحمن ليلة الإسراء حيث تحددت بقاب قوسين ، ومثال قول رسول الله ﷺ في تحديد وقت صلاة الضحى بأنها وقت ارتفاع الشمس في السماء) (قدر رمحين) .

واعتبار القوة وسيلة من وسائل الهداية، ليس فيه تجاوز على وسيلة الإقناع بالكلمة، ولكن ما يترتب على ذلك هو: تحديد الأسلوب القتالي بهذا الاعتبار .. حتى لا تنفصل الحركة القتالية عن هدف الهداية.

وارتباط حركة القتال بهدف الهداية يتحقق بأحكام محددة يجب الالتزام بها وأهمها:

ـ **التبليغ قبل القتال:** (ما قاتل رسول الله قوماً حتى يدعوهم) [٢] ، وهو التبليغ العام ..

(١) أخرجه أحمد (٢/٥٠) عن ابن عمر وسنده حسن كما قال الحافظ في بلوغ المرام وفي الفتح (١٠/٢٢) وصححه الشيخ شاكر في شرح المسند رقم (٥١١٤) وأنظر حجاب المرأة للألباني (ص ١٠٤) .

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢٠٥٣) عن ابن عباس، وسنده صحيح.

أما التبليغ الذي يسبق القتال مباشرة فإنه يكون بعد التبليغ العام، وهو مرتبط بالإمكانية العملية لأصحاب الدعوة، بمعنى أنه يجوز القتال دون أن يحدث هذا التبليغ، والدليل في كتاب الجهاد والسير من صحيح البخاري (باب جواز الإغارة على الكفار الذين بلغتهم دعوة الإسلام من غير تقدم الإعلام بالإغارة): حدثنا سليم بن أخطر بن عدي قال: كتبت إلى نافع أسأله عن الدعاء قبل القتال قال: فكتبت إليَّ، إنما كان ذلك في أول الإسلام .. فقد أغار الرسول ﷺ على بني المصطلق وهم غارون وأنعامهم تستقي على الماء، فقتل مقاتليهم وسبي سبيهم وأصاب يومئذ جويرية ابنة الحارث)[1].

ـ **تبليغ الأسرى**: بدليل قول الله عز وجل:

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّمَن فِي أَيْدِيكُم مِّنَ الأَسْرَى إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (الأنفال:٧٠).

ـ **إنهاء القتال أو الأسر بمجرد تحقق هدف الهداية**: بدليل قول الله:

﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (التوبة:٥).

وقوله سبحانه: ﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ وَآتَوُاْ الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾ (التوبة:١١)

ـ **إجارة المشرك حتى يسمع كلام الله**: بدليل قول الله: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلاَمَ اللّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْلَمُونَ﴾ (التوبة:٦).

ـ وبصفة أساسية فإن ارتباط الحركة القتالية بهدف الهداية يتحقق بتقديم هذه الهدف على غرض القتال ..

سواء كرغبة نفسية .. لقول رسول الله ﷺ: (لا تتمنوا لقاء العدو فإذا لقيتموه فأثبتوا)[2].

أو كطمع في غنيمة .. لقول الله: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلامَ لَسْتَ مُؤْمِناً تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً) (النساء:٩٤).

وقول الرسول ﷺ: (لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من الدنيا وما فيها)[3].

ويعلمنا النبي ﷺ هذا المبدأ عندما تطلب الصحابة منه أن يدعو بهلاك إحدى القبائل فيقولون يا رسول الله: ادعُ الله أن يهلك دوس، فيقول عليه الصلاة والسلام: (اللهم اهد دوساً)[4].

(١) أخرجه مسلم في كتاب الجهاد رقم (١٧٣٠) باب: جواز الإغارة على الكفار الذين بلغتهم دعوة الإسلام من طريق سليم بن أخضر عن ابن عون، و أخرجه البخاري في العتق (٥/١٧٠) من طريق ابن المبارك عن ابن عون.

(٢) أخرجه البخاري (٦/١٥٦) ومسلم رقم (١٧٤١) عن أبي هريرة.

(٣) أخرجه البخاري (٧/٧٠) ومسلم رقم (٢٤٠٦) عن سهل بن سعد.

(٤) أخرجه البخاري (٨/١٠١) ومسلم رقم (٢٥٢٤) عن أبي هريرة.

ثالثاً: قيام السلطة:

واعتبار القوة وسيلة هداية يرجع إلى كونها أساساً لقيام السلطة الإسلامية التي تعتبر بدورها أساساً في تحقيق الهداية.

ودليل العلاقة بين القوة والسلطة والهداية هو قول الله عز وجل:

(إِذَا جَاء نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ . وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا . فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا) (النصر:١-٣) .

ولذلك يجب أن يكون خط القتال مشدوداً إلى موقع السلطة، لتحقيق العلاقة التي أثبتها القرآن بين النصر والفتح، باعتبار أن النصر هو النتيجة العسكرية للقتال، وأن الفتح هو النتيجة السياسية للنصر.

ولذلك كان رسول الله ﷺ ينتظر بعد القتال أياماً في موقع القتال يقيم الأحكام، لتصبح دار الحرب داراً للإسلام، ويتحقق الفتح بعد النصر، مثلما انتظر الرسول في مكة بعد الفتح.

وإثبات القرآن للعلاقة بين القتال والسلطة، هو الذي يرد أي تصور لقيام السلطة بغير القتال.

ذلك لأن السلطة الإسلامية، هي التي يتحقق بها الإظهار لدين الحق .. ولو كره الكافرون ..

قال الله تعالى: (هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ) (الصف:٩ والتوبة:٣٣) .. ولن يكون ذلك إلا بالقوة ..!

كما أن السلطة الإسلامية هي التي يأمن تحتها المسلم على ماله ودينه وعرضه ..

ولن يكون ذلك أيضاً إلا بالقوة ..!

كما أن القتال كأسلوب للوصول إلى السلطة، يمحص أصحاب الدعوة تمحيصاً ..

ويحدد العناصر القادرة على تحمل مسئولية السلطة وتكاليفها ..

ذلك لأن المسلم الذي مر بتجربة الاستضعاف وبيع النفس لله بالقتال في سبيله سبحانه ..

هو المسلم الذي يغلب الظن بقدرته على تحمل تلك المسئولية وهذه التكاليف ..

دون عجز أو فتنة.

ولذلك كان رسول الله ﷺ يختار الولاة على البلاد التي تفتح على المسلمين، من الذين خاضوا تجربة الاستضعاف، فأنكرت قلوبهم فتنة الدنيا، وأصبحت لا تضرهم ما دامت السموات والأرض.

كما قال رسول الله ﷺ: (تعرض الفتن على القلوب كالحصير .. عوداً عوداً .. أيُّما قلب أشربها نكتت في قلبه نكته سوداء، وأيما قلب أنكرها نكتت في قلبه نكتة بيضاء، فأصبحت القلوب على صنفين: قلب أبيض كالصفا .. لا تضره فتنة ما دامت السموات والأرض ..)[1].

(١) رواه مسلم رقم (١٤٤) من حديث حذيفة بن اليمان.

المنطلق الثاني: وهو الإحكام بين مراحل العمل:

ومعناه تحديد الأسس التي يتم بها الانتقال من مرحلة عملية إلى مرحلة عملية أخرى، وأن تكون كل مقتضيات الحركة مرتبطة بالمرحلة التي تمر بها من خلال أسس ثابتة للتحرك.

وأهم هذه الأسس:

١. نظام التحرك:

فمن حيث نظام الارتباط ..

يكون في مرحلة النشأة ارتباط فردي، وفي مرحلة الامتداد يكون ارتباطاً عاماً.

ومن حيث نظام التحرك ..

يكون في مرحلة النشأة تحركاً محدوداً مثلما كان رسول الله ﷺ في دار الأرقم بن أبي الأرقم، وكان كل من يريد اعتناق الإسلام يذهب إليه في تلك الدار لا يعلم أحد مكانه [١].

أما التحرك في مرحلة الامتداد فهو تحرك عام مثل تحرك الرسول ﷺ في المدينة، حيث كان يغشى الناس في مجالسهم، حتى أن عبد الله بن أبي سلول رأس المنافقين أراد أن يحدِّد تحرك رسول الله ﷺ فقال له: لا تغشنا في مجالسنا !، ولكن إذا أتى أحد إليك فتحدث معه، فقد آذانا نتن حمارك ! ، فكان سعد بن عبادة جالساً مع القوم فقال: لا يا رسول الله بل اغشنا في مجالسنا [٢].

وبذلك يريد عبد الله بن أبي أن يرجع بأسلوب تحرك الدعوة إلى ما كانت عليه في مكة، وهذا ما رفضه أنصار المدينة . ولم يذكر رأس المنافقين سبباً لطلبه هذا سوى كلمة: لقد آذانا نتن حمارك !.

وهذه الكلمة .. هي موقف الجاهلية الثابت عندما يفرض انتشار إسلامي، ولا تستطيع رفضه مباشرة لأي سبب من الأسباب، فتختلق المبررات التي تمنع بها هذا الانتشار، حتى لم يجد رأس المنافقين ما يقوله سوى هذه الكلمة التي يفوح منها الشعور الجاهلي العفن تجاه أي امتداد إسلامي .

وقد تستغل الجاهلية أي خطأ قد يقع فيه أصحاب العدوة وتراه سبباً لمنع الانتشار فتضخمه وتنشره، وتهول به مثلما حدث عندما تلاحى رجل من المهاجرين مع رجل من الأنصار. فاستغل عبد الله بن أبي الموقف وأخذ يحرض على المهاجرين وفي ذلك جاء قول الله عز وجل: ﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا عَلَى مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ . يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (المنافقون:٧ ، ٨).

(١) أصحاب الأخدود للكاتب.

(٢) أخرجه البخاري (١٠/١٢٢) من حديث ابن عباس رضى الله عنهما.

وبأسلوب إعلامي خبيث قال عبد الله بن أبي: (مثلكم ومثل هؤلاء ـ يعني الأنصار والمهاجرون ـ كمثل القائل: سمن كلبك يأكلك)[1].

ولعل إدراك الموقف الجاهلي من الامتداد الإسلامي المفروض عليها، يعمق عند كل مسلم مسئولية المحافظة على هذا الامتداد عند التحرك في مجال الدعوة.

٢.اعتبار المآل:

واعتبار المآل هو توقع النتيجة التي ستحدث بعد الانتقال من مرحلة إلى أخرى، لتفادي أي أثر غير مقبول قد يحدث بهذا الانتقال.

واعتبار المآل أصل من أصول الفقه وملخصه: أنه إذا كان هناك عمل جائز في ذاته ولكن مآله غير مقبول صار هذا العمل غير جائز لقول الله: ﴿وَلَا تَسُبُّواْ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللّهِ فَيَسُبُّواْ اللّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ (الأنعام:١٠٨) حيث وضح من النص أن سبّ الذين يدعون من دون الله صار أمراً غير جائز باعتبار المآل، وهو سبّ الله سبحانه وتعالى، والأسس التطبيقية لذلك الأصل في مجال الدعوة هي:

ـ إذا كان العمل الذي له مآل غير مقبول عملاً ضرورياً في ذاته وليس له بديل، فإننا لا نتوقف عن هذا العمل ونواجه ذلك المآل. مثال اتخاذ الكافرين لنداء المسلمين إلى الصلاة هزواً ولعباً بدليل قول الله: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا﴾ (المائدة:٥٨) إذ أنه ليس معنى أن يتخذ الكافرون النداء إلى الصلاة هزواً ولعباً أن نتوقف عن النداء، لأنه عمل ضروري وليس له بديل.

ـ إذا كان العمل له بديل توقفنا عنه وفعلنا ذلك البديل لتفادي المآل المترتب على هذا العمل مثال قول الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَقُولُواْ رَاعِنَا وَقُولُواْ انظُرْنَا وَاسْمَعُواْ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (البقرة :١٠٤)

إذ ورد في تفسير الآية: أن اليهود كانت تقول (راعنا) أي أرعننا وجعلوها من الرعونة، والكلمة من المراعاة، فكانوا بذلك يسبون النبي ﷺ، فجاء أمر الله بتغيير كلمة "راعنا" بكلمة بديلة وهي "انظُرْنَا".

ـ وفي التفريق بين المآل المقبول والغير مقبول، يجب أن نفرق بين ما قد يصيب الدعوة من ضرر، وما يصيب الأشخاص من أذى ، فما يصيب الدعوة من ضرر هو المآل الغير مقبول، ولكن ما يصيب الأشخاص من أذى فهو مآل لابد أن يكون، وبذلك يلزم التوقف عن أي عمل يترتب عليه ضرر للدعوة، كما يلزم عدم التوقف عن أي عمل لمجرد توقع الأذى للأشخاص، بل نعمله مع بذل الطاقة لدفع هذا الأذى والصبر عليه عندما يقع.

(١) أخرجه ابن إسحاق عن قتادة مرسلاً راجع الفتح للحافظ (٨/٦٥٠) وابن كثير في التفسير (٧/١٨) .

والدليل على التفريق بين الضرر والأذى هو قول الله عز وجل: ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلاَّ أَذًى﴾ (آل عمران:١١١) حيث أن معنى النص هو أنه لن يضروكم في دعوتكم ودينكم، ولكن قد يصيبوكم في أشخاصكم ودنياكم.

٣.الاتزان الحركي:

ومفهوم الاتزان الحركي .. مقصود به أن يكون الانتقال المرحلي مجرد من الاندفاع والانفعال والحماس، وبأن يكون الانتقال بعامل زمني منضبط. فلا تنفلت الحركة بالاندفاع النفسي من قيد الإمكانيات العملية. والانضباط الزمني للتحرك، هو الحد الفاصل بين السرعة المطلوبة بالصفة العملية، والتعجل المحذور بالصفة النفسية.

والقرآن يعلمنا من خلال قصة سليمان، مبدأ الاهتمام بالوقت، وذلك في موقف الآتيان بالعرش عندما قال: ﴿قَالَ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ . قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ . قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ (النمل:٤٠).

وواضح من الآيات أن الذي أتى بالعرش هو الذي عرض إمكانية الإتيان به أسرع من الآخر.

والاهتمام بالوقت هو الذي يحمي الحركة من صفة التأخر المنهي عنها، بقول رسول الله ﷺ: (ولا يزال قوم يتأخرون حتى يؤخرهم الله)[١].

ولقد تبين لنا من خلال منهج التربية كيف أن الوصول إلى مرحلة الربانية هو الذي يحقق الاتزان النفسي عند الداعية ويحميه من الاندفاع ويعينه على تحمل أي ضغط أو معاناة ..

كما تبين لنا أن الحماس أمر مرفوض في مجال الدعوة، وأنه وإن كان يمثل في ظاهره طاقة؛ فإنها في حقيقتها طاقة وهمية وليست باقية.

وهذا الاتزان النفسي هو الذي يحمي الحركة من صفة التعجل المنهي عنها بقول رسول الله ﷺ: (والله ليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من مكة إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون)[٢].

ولذلك يقول ابن القيم في الحكمة: (ولها ثلاثة أركان: العلم والحلم والأناة، وآفاتها وأضدادها: الجهل والطيش والعجلة، فلا حكمة لجاهل ولا طائش ولا عجول والله اعلم)[٣].

(١) رواه مسلم (٤٣٨) عن أبي سعيد.
(٢) البخاري (٧/١٦٤) عن خباب.
(٣) مدارج السالكين ص ٥٠٠.

٤ ـ حماية الولاء:

ومن أسس الانتقال المرحلي للدعوة: أساس حماية الولاء ..

لأن الولاء سمع وطاعة ، ودخول الجماعة المسلمة في مرحلة يعجز الفرد عن تحمل مشاقها، سيجعله يعيد التفكير في ولائه فيضطرب وضع الولاء في الجماعة.

ولذلك طلب رسول الله ﷺ بيعة من الأنصار عندما أراد أن يخرج إلى قريش خارج المدينة، وذلك حتى يرتفع مستوى الولاء إلى طبيعة المرحلة القادمة، لأن البيعة التي تمت الرسول ﷺ والأنصار قبل بدر كانت تنص على حمايته في المدينة.

واستجابت الأنصار، وقال سعد بن معاذ كلمته المشهورة: (إنا لن نقول كما قالت بنو إسرائيل لموسى: (اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ) (المائدة:٢٤) ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون) [١].

كما طلب الرسول ﷺ بيعة من المسلمين لما أراد أن يحارب قريشاً بعدما جاءه خبر مقتل عثمان وكانت بيعة الرضوان.

والواقع أن حماية الولاء مسألة نفسية دقيقة، وخصوصاً عندما يكون تحقيق هذا الولاء في واقع .. فيه الشح مطاع .. والهوى متبع .. وإعجاب كل ذي رأي برأيه ..

ويكون المطلوب تحقيقه: هو مقتضيات الولاء ..

وأهمها: العطاء والالتزام والتجرد.

وكما يراعى مستوى الجماعة قبل الدخول في مرحلة جديدة، يراعى مستوى الفرد في تكليفه بمهمة معينة، لأن التكليف بلاء، والبلاء يجب أن يتناسب مع دين الفرد لقول رسول الله ﷺ: (يبتلي المرء بقدر صلابته في الدين ، فإن علم في دينه صلابة زيد في ابتلائه . وإن علم في دينه رقة خفف من ابتلائه) [٢].

وحماية الولاء مهمة يجب أن تتلازم مع نشأته من البداية.

ولذلك حدد القرآن الكريم الأسلوب المرحلي الذي يتم به التعامل مع النفس البشرية لتحقيق الولاء، وتبدأ مراحل نشأة الولاء بمثل قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ، إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (النور:٦٢) ، وهي مرحلة تتأكد فيها سلطة النبي ﷺ على المسلمين ممثلة في قوله تعالى: ﴿فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ﴾ (النور:٦٢).

(١) أخرجه البخاري (٨/٢٧٣) عن ابن مسعود.

(٢) أخرجه الترمذي (٢٣٩٨) وغيره وقال حسن صحيح.

لتنتهي مراحل نشأة الولاء بمرحلة الولاء الكامل محددة بمثل قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ، وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا﴾ (الأحزاب:٣٦).

٥ ـ الارتباط بالغاية:

ووضوح الغاية من البداية .. فيه تحقيق للبصيرة في الدعوة، ولذلك كانت صحابة رسول الله ﷺ يدركون من البداية ما معنى دخولهم في الإسلام، وما هي المراحل الحتمية التي سيخوضونها باعتناقهم لهذا الدين.

وهذا أحد الأنصار في بيعة العقبة يقول:

"أتدرون على أي شيء بايعتم رسول الله ؟، لقد بايعتموه على الموت".. !(١)

فتأكد من القول أن وضوح الغاية، يحقق اليقين بقدوم المواجهة .. فيتحقق الاستعداد لها.

والاستعداد والرغبة في المواجهة، يوازي في قيمته المواجهة ذاتها، ولهذا قال رسول الله ﷺ: (من مات ولم يغزُ ولم تحدثه نفسه بغزو مات ميتة جاهلية)(٢).

ووضوح الغاية .. يحقق كذلك الشعور بالشوط الذي قطعه الداعية في طريق التحقيق لتلك الغاية، وبالتالي فإن هذا الشعور يقوي فيه إرادة الاستمرار وعزم الوصول.

وهذه طبيعة إنسانية ارتكز عليها رسول الله ﷺ في واقع الدعوة.

وهذا موقف يثبت ذلك: عندما بعث رسول الله ﷺ عبد الله بن جحش في سرية لترصد عير قريش كتب له كتاباً وأمره ألا ينظر فيه حتى يسير يومين ثم ينظر فيه ولما فتح الكتاب وجد فيه: (إذا نظرت في كتابي فأمض حتى تنزل بنخلة بين مكة والطائف، فترصد بها عير قريش، وتعلم لنا من أخبارهم، ولا تكره أحداً ممن معك) فقال: سمعاً وطاعة، وأخبر أصحابه كلهم بذلك، وبأنه لا يستكرههم، فمن أحب الشهادة فلينهض ومن كره الموت فليرجع، وأما أنا فناهض ، فنهضوا كلهم)(٣).

وواضح من الحديث أن المهمة كانت خطيرة .. وأنها تتطلب عزما وإرادة ..

ولذلك لم يخبرهم الرسول بها حتى يقطعوا شوطاً منها، وهو مسيرة يومين، ليكون قطع هذا الشوط عوناً لهم في إرادة الاستمرار .. لتحقيق الهدف والغاية.

وهذه حقيقة فطرية، تتحدد بها قيمة الإحساس بالشوط المقطوع في طريقنا، لتحقيق هدفنا وغايتنا.

(١) البخاري (٦/١١٧) عن ابن عمر. وعن سلمة بن الأكوع في الجهاد باب البيعة في الحرب.
(٢) رواه مسلم (١٩١٠) عن أبي هريرة.
(٣) أخرج هذه القصة الإمام أحمد في المسند (١/١٧٨) من حديث سعد بن أبي وقاص.

والارتباط بالغاية من الناحية العملية يعني أن تكون كل الوسائل والإمكانيات مشدودة إلى تحقيق تلك الغاية، فلا تشذ وسيلة عن اتجاهها، ولا تتحول وسيلة في ذاتها إلى غاية.

وهذا هو الحق .. كما قال رسول الله ﷺ - وفي يده سيف -: (من يأخذ هذا السيف بحقه) ؟ فقام رجل وقال: وما حقه يا رسول الله ؟ قال: (أن تقاتل به في سبيل الله حتى تقتل)[1].

وواضح من الحديث .. أن المرحلة التي يتمكن فيها المسلم من حمل السلاح، ينشأ معها حق القتال به حتى يقتل في سبيل الله.

وهكذا ترتبط المراحل رغبة في القتال، ثم استعداد وإعداد، ثم قتال في سبيل إعلاء كلمة الله، وشهادة يتحقق بها رضا الله ودخول الجنة.

* * *

(١) أخرجه مسلم (٢٤٧٠) عن أنس وهذا الرجل هو أبو دجانه سماك بن خرشة.

خاتمة

على هذه الأسس يرسي القرآن قواعد الدعوة ومبادئها .. ويعين وسائلها وطرائقها ..
ويرسم المنهج للرسول الكريم .. وللدعاة من بعده بدينه القويم ..
فلننظر في دستور الدعوة الذي شرعه الله في هذا القرآن :
إن الدعوة .. دعوة إلى سبيل الله، لا لشخص الداعي ولا لقومه.
فليس للداعي من دعوته إلا أنه يؤدي واجبه لله ..
لا فضل له يتحدث به، لا على الدعوة، ولا على من يهتدون به ..
وأجره بعد ذلك على الله.

و**الدعوة بالحكمة**، والنظر في أحوال المخاطبين وظروفهم، والقدر الذي بينه لهم في كل مرة حتى لا يثقل عليهم، ولا يشق بالتكاليف قبل استعداد النفوس لها، والطريقة التي يخاطبهم بها، والتنويع في هذه الطريقة حسب مقتضاياتها، فلا تستبد به الحماسة والاندفاع والغيرة فيتجاوز الحكمة في هذا كله وفي سواه.

و**بالموعظة الحسنة** التي تدخل إلى القلوب برفق، وتتعمق في المشاعر بلطف، لا بالزجر والتأنيب في غير موجب، ولا بفضح الأخطاء التي قد تقع عن جهل أو حسن نية، فإن الرفق في الموعظة كثيراً ما يهدي القلوب الشاردة، ويؤلف القلوب النافرة، ويأتي بخير من الزجر والتأنيب والتوبيخ.

وبالجدل بالتي هي أحسن، بلا تحامل على المخالف، ولا ترذيل له وتقبيح، حتى يطمئن إلى الداعي، ويشعر أن ليس هدفه هو الغلبة في الجدل، ولكن الإقناع والوصول إلى الحق.

فالنفس البشرية لها كبرياؤها وعنادها، وهي لا تنزل عن الرأي الذي تدافع عنه إلا بالرفق، حتى لا تشعر بالهزيمة. وسرعان ما تختلط على النفس قيمة الرأي وقيمتها هي عند الناس، فتعتبر التنازل عن الرأي تنازلا عن هيبتها واحترامها وكيانها. والجدل بالحسنى هو الذي يطامن هذه الكبرياء الحساسة، ويشعر المجادل أن ذاته مصونة، وقيمته كريمة. وأن الداعي لا يقصد إلا كشف الحقيقة في ذاتها والاهتداء إليها ..

في **سبيل الله** ، لا في سبيل ذاته ونصرة رأية وهزيمة الرأي الآخر !

ولكي يطامن الداعية من حماسته واندفاعه، يشير النص القرآني إلى أن الله هو الأعلم بمن ضل عن سبيله، وهو الأعلم بالمهتدين. فلا ضرورة للحاجة في الجدل، إنما هو البيان والأمر بعد ذلك لله.

هذا هو منهج الدعوة ودستورها ما دام الأمر في دائرة الدعوة باللسان، والجدل بالحجة. فأما إذا وقع الاعتداء على أهل الدعوة فإن الموقف يتغير..

فالاعتداء عمل مادي يدفع بمثله، اعزازاً لكرامة الحق، ودفعا لغلبة الباطل، على ألا يتجاوز الرد على الاعتداء حدوده إلى التمثيل والتقطيع، فالإسلام دين العدل والاعتدال، ودين السلم والمسالمة، إنما يدفع عن نفسه وأهله البغي ولا يبغي:

﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ﴾ (النحل:١٢٦).

وليس ذلك بعيداً عن دستور الدعوة فهو جزء منه، فالدفع عن الدعوة في حدود القصد والعدل، يحفظ لها كرامتها وعزتها، فلا تهون في نفوس الناس ..

والدعوة المهينة لا يعتنقها أحد، ولا يثق أنها دعوة الله ..

فالله لا يترك دعوته مهينة .. لا تدفع عن نفسها ..

والمؤمنون بالله لا يقبلون الضيم وهم دعاة الله، والعزة لله جميعاً ..

ثم إنهم أمناء على إقامة الحق في هذه الأرض، وتحقيق العدل بين الناس، وقيادة البشرية إلى الطريق القويم ..

فكيف ينهضون بهذا كله ، وهم يعاقَبُون فلا يعاقِبُون ؟! ويُعتدى عليهم فلا يردون ؟!

ومع تقرير قاعدة القصاص بالمثل، فإن القرآن الكريم يدعو إلى العفو والصبر، حتى يكون المسلمون قادرين على دفع الشر ووقف العدوان، في الحالات التي قد يكون العفو فيها والصبر أعمق أثراً وأكثر فائدة للدعوة ..

فأشخاصهم لا وزن لها إذا كانت مصلحة الدعوة تؤْثِر العفو والصبر ..

فأما إذا كان العفو والصبر يهينان دعوة الله ويرخصانها، فالقاعدة الأولى هي الأَوْلى !.

ولأن الصبر يحتاج إلى مقاومة للانفعال، وضبط للعواطف، وكبت للفطرة فإن القرآن يصله بالله ويزين عقباه:

﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ . وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللّهِ﴾ (النحل:١٢٦ـ ١٢٧)

فهو الذي يعين على الصبر وضبط النفس، والاتجاه إليه .. هو الذي يطامن من الرغبة الفطرية في رد الاعتداء بمثله ، والقصاص له بقدره.

ويوصي القرآن الرسول ﷺ - وهي وصية لكل داعية من بعده - :

ألا يأخذه الحزن إذا رأى الناس لا يهتدون، فإنما عليه واجبه يؤديه، والهدى والضلال بيد الله وفق سنته في فطرة النفوس واستعداداتها، واتجاهاتها للهدى أو الضلال ..

ألا يضيق صدره بمكرهم فإنما هو داعية لله، فالله حافظه من المكر والكيد، لا يدعه للماكرين الكائدين، وهو مخلص في دعوته لا يبتغي من ورائها شيئاً لنفسه.

ولقد يقع به الأذى لامتحان صبره، ويبطيء عليه النصر لابتلاء ثقته بربه ..

ولكن العاقبة مظنونة ومعروفة:

﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَواْ وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ (النحل:١٢٨)

ومن كان الله معه .. فلا عليه مما يكيدون ومما يمكرون !.

هذا هو دستور الدعوة إلى الله كما رسمة الله ..

والنصر مرهون باتباعه كما وعد الله ..

ومن أصدق من الله ؟! (*)

* * *

(*) في ظلال القرآن .. تفسير قول الله: (ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ) (النحل: ١٢٥)

فهرس الموضوعات

المقدمة	٣
الفصل الأول: معنى الحكمة	٥
الفصل الثاني: قيام الجماعة الواحدة	١١
الفصل الثالث: إحكام الفكر الإسلامي	١٦
الفصل الرابع : تكوين الفرد المفكر	٢٦
الفصل الخامس : ضرورتان	٣٦
الفصل السادس : منهج الدعوة	٤٤
خاتمة	٦٩